نيلسون مانديلا..



زعيم الثوار في أفريقيا

محمد فتحي

جزيرة الورد للنشر والتوزيع

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : نيلسون مانديلا.. زعيم الثوار في أفريقيا

المـــــؤلف : محمد فتحي

رقم الإيـداع :

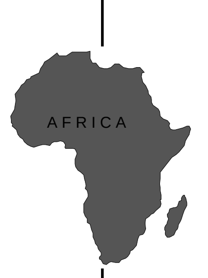
الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى 2010

الناشر : مكتبة جزيرة الورد

4 ميدان حليم ـ خلف بنك فيصل الرئيسي ـ شارع 26 يوليو من

المقدمـــــــــــة



نيلسون مانديلا

زعيم الثوار في أفريقيا

هناك قاعدة تاريخية.. وحقيقة هامة لا جدال فيها تقول :

«إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر»

لكن تبحث الشعوب دائماً عمن يمسك لها بمصباح الثورة.. والتمرد على الظلم.. والظلمة.. لينير لها وسط دروب القهر.. والاستعمار طريق الحرية.. ويفتح لها باب النضال.

وما أكثر الأبطال الذين حاكمهم الطغاة.. وحكموا بسجنهم أو إعدامهم.. ثم تدور الأيام فإذا بالضحية تحاكم الجلاد.. وكأنها سنة إلهية ثابتة.

وعند استعراضنا لمسيرة مانديلا نجد أن الرجل هو وسبعة من رفاقه أصدر ضدهم نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا حكماً ظالماً بسجنهم.. مدى الحياة بسبب نشاطهم ضد النظام العنصري.

وبسبب تلك المحاكمة الظالمة قضى مانديلا وراء القضبان سبعة وعشرين عاماً.. لكنه خرج بعدها بطلاً تاريخياً ليس لنضال جنوب أفريقيا ضد العنصرية فقط.. وإنما لكل من يناضل ضد الأنظمة العنصرية والاستبدادية.

وقد أرغم مانديلا جلاديه ومن يقف وراءهم على احترامه.. حتى بلغ الأمر أن تنحني الحكومة البريطانية التي كانت من أقوى داعمي نظام الفصل العنصري أمام هذا القائد وتوافق على إقامة نصب تذكاري له في ميدان البرلمان.. ليقف تمثاله إلى جوار تمثال تشرشل.

وهذا الرجل ينتمي لصنف من الثوار جينات الحرية متأصلةً داخل تكوينهم الشخصي.. والنفسي.. تهون عليهم الحياة.. ولا تهون عليهم كرامتهم.. لا يأبهون الموت.. أو قسوة السجن.. فداء لكرامة.. وحرية أوطانهم.. لذا تصبح حياتهم أكثر اختلافاً عما عداهم من بشر عاديين.. يرفضون الاستسلام للظلم.. والخضوع لقواعده الظالمة من التفرقة العنصرية البغيضة.

فقد كافح باسم أمة كاملة كانت تمثل آخر قلاع التميز العنصري.. عاشت قرونًا متتالية تحت نير الاستعمار مستكينة.. وخانعة.. قبل مجيئه هو ليحقق لها حريتها.. ويصبح بذلك أحد أهم رموز الحرية في التاريخ الإنساني بعد أن تحول لأشهر سجين وطني في القرن العشرين.. باعتباره صاحب أطول فترة اعتقال في التاريخ السياسي المعاصر.

وفي أول انتخابات متعددة الأعراق ترأس نيلسون مانديلا بلاده في العاشر من مايو من عام 1994م ليصبح بذلك أول رئيس أسود لجنوب أفريقيا.

وفي هذا الكتاب تفرض الحيرة نفسها بين مانديلا الثائر.. والسجين الذى كان يظن أن عينيه لن تريا نور الحرية أبداً..

ومانديلا الرئيس.. ورجل السياسية.. الذى ما كان يحلم بهذا على الإطلاق.

وتتشابك خيوط الحيرة.. وتتقاطع في الكثير من الأحداث.. والمواقف التى تمثل سيرة حياة ذلك الرجل بكل تداعياتها.. وانكساراتها.. وانتصاراتها أيضاً.

ولكن.. وقبل أن نترك دفة الأحداث لتقود سفينة إبحارنا مع سيرة وحياة هذا المناضل.. نوسع قليلاً دائرة القضية لننظر لها من أهم نقاطها.. أو لنقول من مركز الدائرة وهى قضية استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.. تلك القضية التى هي إحدى معضلات التاريخ الضاربة في القِدم.. حيث يحكى لنا التاريخ عن مناضلين كثيرين ضد العنصرية لعل أشهرهم قديماً كان سبارتكوس.. وثورته الشهيرة على الإمبراطورية الرومانية.. وآخرهم هو مانديلا.

وبين هذا وذاك توالى العديد من الثوار.. والثورات عبر كل عصور الإنسانية.. حتى جاء القرن التاسع عشر ليشهد حركة واسعة النطاق للقضاء على تلك الظاهرة الممقوتة رسميا.. ففي عام 1792 كانت الدنمارك أول دولة أوربية تلغي تجارة الرق.. تبعتها بريطانيا.. ثم أمريكا بعد عدة سنوات.. وفي مؤتمر فيينا عام 1814 عقدت كل الدول الأوربية معاهدة منع تجارة العبيد.. وعقدت بريطانيا بعدها معاهدة ثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية عام 1848 لقمع هذه التجارة.. بعدها كانت القوات البحرية الفرنسية والبريطانية تطارد سفن مهربي العبيد.. وحررت فرنسا عبيدها.. وحذت حذوها هولندا.. وتبعتها جمهوريات جنوب أمريكا ما عدا البرازيل حيث ظلت العبودية قائمةً بها حتى عام 1888م.

لكن خلال القرن العشرين حدث نوعٌ من الارتداد الحضاري عن هذا المفهوم.. وعاد وباء العنصرية ليمتد إلى كل مكان في العالم خاصةً في الغرب الذي يشعر أبناؤه دائماً بالتفوق على الآخرين خاصة السود.. وتظهر دعاوى عنصرية أخرى مبنية على التحزب السياسي الحزبى.. والعقائدي (مثل الفاشية.. والشيوعية.. وغيرها).. وارتفعت نسبة الجرائم العنصرية بصورة شبه يومية.. حتى إن بلداً مثل إيطاليا بلغ عدد القتلى فيها الثلثين من المهاجرين الملونين بحسب ما أكدته دراسة حديثة.

وفي الإطار نفسه كشفت دراسة أخرى أجرتها جامعة هارفارد الأمريكية أن سلوكيات قطاعات كبيرة في المجتمع الأمريكي الأبيض تنطلق من أسس عرقية خاصة في سوق العمل التي تتأثر بقوة بالرواسب العنصرية.

ثم تفتق ذهن الغرب.. عن مفهوم جديد لتطوير العبودية لتصبح لفظاً أقل بشاعة وإن كان بالطبع يفتقد للحياد وهو الفصل أو التمييز العنصري أي أن كل جنس من الأجناس البشرية ينمو ويعيش ويتطور بشكل منفصل.

والمناخ العام في الغرب يناهض كل أجنبي ويعتبره سارقاً لفرصة عمل هي من حق الرجل الأبيض.. كما أن هناك شعوراً متزايداً لدى المواطن الغربي بالعنصرية.. فقد أوضح استطلاع للرأي العام في أوروبا في بدايات الألفية الثالثة أن واحداً من كل ثلاثة أوروبيين يعترف بأنه عنصري.

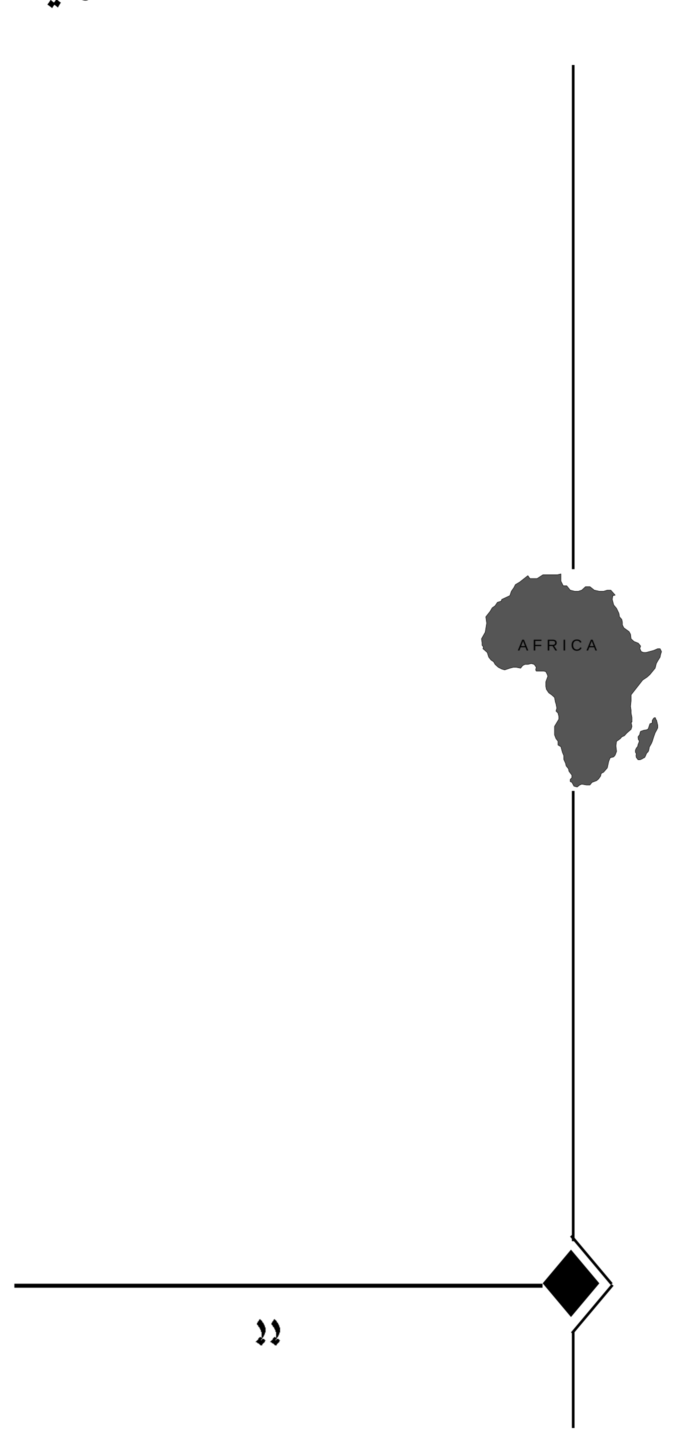
وكما يقول أحد الباحثين الغربيين فإن التمييز العنصري يبدأ بأن تعطي لنفسك تبريراً بأن خصمك من أبناء الأجناس الأخرى هو أدنى منك لينتهي الأمر بحقك في استخدام هذا الخصم واستباحة موارده حتى استعباده وقتله.

وبلغ الأمر حداً مفزعاً من شأنه أن يكرس لمفهوم التمييز العنصري إلى الأبد حيث يحاول بعض الباحثين الغربيين استغلال التطور الهائل في علم الوراثة لإثبات أن شعوباً بعينها أذكى من شعوب أخرى.. وخرج باحث غربي عام1995 في كتاب بعنوان «منحني الجرس» ليدعي أن السود أغبياء بالوراثة.

وليس جديداً أن يحاول البعض إيجاد أسباب علمية وبيئية للتمييز بين البشر ـ لكن الجديد والمفزع حقاً هو استخدام هؤلاء الباحثين الغربيين للعلم الحديث لإثبات أن جينات معينة في جنس ما تختلف عن جنس آخر.. أو أن معامل الذكاء لدى البيض أعلى منه لدي السود مثلا.. ورغم تحذيرات علماء كثيرين.. منهم علماء من الغرب.. من خطورة التمادي في هذا المنحى إلا أنه من الواضح أن بعض دوائر البحث العلمي في الغرب تسير باتجاه ابتكار جيل جديد من العنصرية قائم على العلم بعد أن فشل الغرب في ممارسة العنصرية بالقوة.

محمد فتحي

تمهيد جنوب أفريقيا.. بين الاحتلال والتمزق العنصري



احتاجت جنوب أفريقيا إلى ما يزيد عن ثلاثة قرون لتنال استقلالها.. وتنهى صفحة الذل.. والاضطهاد باسم التفرقة العنصرية التي كانت هي القانون السائد هناك طوال تلك القرون الثلاثة.

وبدايةً نقول أنه على عكس الشائع بين معظم الناس فإن التمييز العنصري بمفهومه الواسع.. هو أي تقسيم أو تصنيف للبشر.. على أساس لا دخل لأحدٍ فيه من لون.. أو عرقٍ.. أو دين.. أو جنس..أو ما شابه ذلك.

والعنصرية لم تظهر فجأة بل هي امتداد لسلوكيات وممارسات ترجع إلى آلاف السنين.. فالعبودية وأعمال السخرة معروفة منذ القدم وممارستها للشعوب المنتصرة ضد المهزومة واقع تاريخي مشهور.

وبشكل عام من شأن التمييز العنصري ألا يحقق المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس عامةً.. أو على وجه الخصوص بين أبناء الوطن الواحد.

وللتمييز العنصري أشكال متعددة.. فهناك التمييز على أساس الحضارة.. والفكر وهو ما اعتنقه ودافع عنه بضراوة الإسكندر الأكبر[1].. وشد رحاله في كافة أرجاء العالم لينشر إيمانه بتميز الحضارة الإغريقية عالمياً.

وهناك المفهوم الألماني الذي كان ينادى بتفوق العرق الآري.. ودناءة.. وانحطاط باقي الأجناس خاصة أصحاب العِرق اليهودي.. ومن هنا جاء ما يُعرف تاريخياً بمحارق «الهولوكوست».

(1) وُلِدَ الإسكندر عام 358 قبل الميلاد في (بيلا) العاصمة القديمة لمقدونيا التي كان يحكمها والده من سنة 359 ق.م إلى حين وفاته سنة 336 ق. م.. والدته هي الملكة أوليمبياس إحدى الزوجات السِت للإمبراطور فيليب.. أوفيليبوس الثاني المقدوني.. يقول بعض المؤرخين : أن الملكة أوليمبياس دبرت مؤامرة الاغتيال والتخلص من فيليب مع الإسكندر.. فتم اغتيال فيليب بطعنة في إحدى حفلات الزواج.. لتستيقظ أثينا بكاملها ذات يوم من صيف عام 336 (ق.م) على نبأ اغتيال إمبراطورهم فيليبّوس الثاني عن عمر يناهز السادسة والأربعين.. ولم يستطع أحدٌ التعرف على القاتل.. وفي ربيع عام 323 (ق. م) وصل الإسكندر إلى بابل.. وفي بلدة سوسة الواقعة على نهر الفرات في سوريا حالياً قام الإسكندر بنصب معسكره بالقرب من النهر شرق سوريا.. وفي شهر يونيو من نفس العام أصيب بحمى شديدة مات على أثرها.

ومن التمييز العنصري بمفهوم النظام الإقطاعي.. حيث يعمل الفلاحون والمزارعون لدى أصحاب الإقطاعيات في ظروف أشبه بظروف العبيد في كثير من الأحيان.. وكذلك الحال بالنسبة للعمال في المصانع.

لكن بشكل أكثر تحديداً اختزل مفهوم التمييز العنصري عند معظم الناس.. حتى وصل إلى الصورة الراهنة.. وهي التمييز العنصري على أساس اللون فقط.. وتلك العنصرية الملونة انقسمت إلى:

1 – سياسة شبه رسمية.. مثلما هو عليه الحال الآن في بعض الولايات الأمريكية.. فبعد قيام الثورة الأمريكية أصبح للعبيد بعض الحقوق المدنية المحدودة.. وكان العبيد في مطلع القرن 19 يتمركز معظمهم بولايات الجنوب بالولايات المتحدة الأمريكية.. لكن بعد إعلان الاستقلال الأمريكي اعتبرت العبودية شراً ولا تتفق مع روح ومبادئ الاستقلال.. ونص الدستور الأمريكي على إلغاء العبودية عام 1865م وفي عام 1906م عقدت عصبة الأمم مؤتمر العبودية الدولي حيث قرر منع تجارة العبيد وإلغاء العبودية بشتى أشكالها.

وما إن ألغى الرئيس إبراهام لنكولن [1] العبودية في ستينيات القرن الماضي حتى ظهرت للوجود جماعة كوكلاس كلان العنصرية وشعارها (الرجل الأبيض خادم الرب والرجل الأسود خادم الرجل الأبيض.. وهذا أمر الله) وهو ما أطلق عليه مفكر أمريكي اسم (حديث الكراهية) وسرعان ما اكتسبت الجماعة من جراء أعمال العنف التي مارستها ضد السود.. شعبية كبيرة بين صفوف البيض فقد بلغ عدد أعضائها في العشرينيات مليوني شخص.. واحتاج الأمر إلى100 عام حتى تكتشف الحكومة الأمريكية مخاطر هذه الجماعة.. وتعلن الحرب عليها في أبريل1965 لكن أصبح هذا الأسلوب اللاإنساني داخل الولايات المتحدة الأمريكية ممارسة شبه يومية من جانب بعض البيض ضد أبناء الأجناس الأخرى.. والعالم الثالث المقيمين في الغرب[1] ومنذ زمن الحرب الأهلية.. وحتى الآن في الولايات المتحدة استمر الوضع على هذا الشكل بين الشمال المنادي بتحرير العبيد.. والجنوب الذي لا يريد التخلي عنهم للعمل في المزارع.. وبعد انتصار الشماليين أُلغيت قوانين العبودية دستورياً.. وظلت تمارس اجتماعياً إلى يومنا هذا في كثير من الولايات.. وما زالت أحياء السود منفصلة في عمومها عن أحياء البيض.. وتتميز بالفقر والجهل والتخلف.. على عكس أحياء البيض.

---

(1) هو الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية.. حيث تولى الرئاسة من عام 1861 إلى عام 1865 ويعدّ من أهمّ رؤسائها على الإطلاق.. إذ قامت في عهده الحرب الأهلية الأمريكية بعد انفصال إحدى عشرة ولاية وإعلانها تكوين دولة مستقلة سمّيت الولايات الكونفدرالية الأمريكية.. فتمكن لنكولن من الانتصار وإعادة الولايات المنفصلة إلى الحكم المركزي بقوة السلاح.. كما كان صاحب قرار إلغاء الرق في أمريكا عام 1863 وولد إبراهام لنكولن في ١٢ فبراير ١٨٠٩ ومات لنكولن مقتولاً عام 1865.

(1) كما قلنا الغريب في الأمر أن هناك اليوم ومع اقتراب الألفية الثالثة من الميلاد يحدث تطوير جديد للعنصرية حيث يجهد بعض علماء الوراثة الغربيين أنفسهم لإثبات أن تفوق الإنسان الأبيض على الإنسان الأسود أمر حتمي!

• وسياسة رسمية تخضع لنصوص القانون ومواده.. مثلما هو الحال في جنوب أفريقيا .. أو ما كان يعرف سابقاً بجمهورية «اتحاد جنوب أفريقيا» التي تُعد مثالاً من أسوأ أمثلة التفرقة العنصرية البغيضة.. حيث حكم أربعة ملايين من العناصر البيضاء.. حوالي 29 مليونًا من غير البيض.. هذا الاتحاد فقد وحدته قبل أن يولد.. بعد أن تحول إلى جنة بالنسبة للأقلية البيضاء.. وجحيم بالنسبة للأغلبية السوداء.. وقلعة من أظلم قلاع التفرقة العنصرية التي عرفها الإنسان على مر التاريخ.. فقد سلكت الأقلية البيضاء سياسة عزل الأغلبية غير البيضاء في مناطق تتسم بالفقر والجدب.. وعملوا على تسخيرهم كعبيدٍ في خدمتهم.. كما نستطيع أن نحصر جرائم السود ضد البيض.. في النقاط التالية :

- دخول السود من باب مخصص للبيض .
- ركوب السود حافلة للبيض .
- استعمال السود صنابير مياه مخصصة للبيض .
- تواجد السود على شاطئ مخصص للبيض .
- تواجد السود فى الشارع بعد الحادية عشرة مساء .
- عدم حمل دفاتر تصاريح للمرور .
- جريمة أن يكون هناك توقيع خطأ في الدفتر .
- جريمة أن يكون أحدهم عاطلاً .
- جريمة ألا يكون لأحدهم سكن..

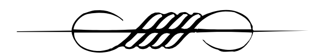
وأمعنت سلطات البيض في جنوب أفريقيا في سياسة التفرقة العنصرية وتمادت في تطبيقها مما جلب عليها سخط العالم.. واستنكاره.. فأصدرت هيئة الأمم المتحدة عدة قرارات لمقاطعة اتحاد جنوب أفريقيا في سنة 1962 والسنوات التالية لها.. كما قاطعت دول العالم الثالث اتحاد جنوب أفريقيا بسبب التفرقة العنصرية بعد أن تحولت هناك العنصرية من مجرد أيديولوجية وأسلوب حياة إلى نظام سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي من خلال سلسلة من القوانين بدأت عام1911 ووصلت ذروتها عام1948 بتولي الحزب الوطني السلطة وفرض العنصرية رسمياً كنظام حكم.. وحسب تعبير فريدريك ديكليرك آخر رئيس أبيض لجنوب أفريقيا فقد أردنا أن نوجد أوروبا صغيرة في أفريقيا.. يكون فيها الرجل الأبيض هو السيد ومانح الحياة ويتحول الأسود صاحب الأرض إلى متاع وخادم وتابع.. وكانت الأقلية البيضاء هناك تملك كل شيء وتمسك في يدها بكل مقاليد البلاد.. في حين كانت الأكثرية السوداء من السكان الأصليين.. لا يجدون ملجأً إلا في العمل كعبيد في مزارع ومصانع البيض.. ومن رفض منهم الانصياع كان نصيبه القتل أو السجن أو التشريد.. وثارت الغالبية السوداء.. واضطر ديكليرك بإخراج نيلسون مانديلا من السجن الذي قضى فيه 27 عاماً.. ليصل خلال فترة وجيزة إلى سدة الحكم.. فدخل ديكليرك بذلك التاريخ من أوسع أبوابه.

ولم يكن القضاء على النظام العنصري في جنوب أفريقيا أو إلغاء قوانين العنصرية في الولايات المتحدة وليد اقتناع داخلي بين البيض.. كما قال ديكليرك بل محصلة لكفاح السود الطويل للحصول على حقوقهم من خلال حركة المؤتمر الوطني في جنوب أفريقيا(African National Congress) بزعامة نيلسون مانديلا أو حركة الحقوق المدنية الأمريكية بزعامة مارتن لوثر كنج ومالكوم إكس وجيسي جاكسون وغيرهم.

وقد مات عشرات الملايين سواء في جنوب أفريقيا.. أو الولايات المتحدة قبل أن يعيشوا لحظة الحرية.. والخلاص.

وما سبق لا يعني سوى شيء واحد هو أن العنصرية بوجهها الرسمي انتهت.. لكن الرواسب العنصرية مازالت موجودة والجماعات اليمينية المتطرفة في أنحاء العالم الغربي.. تنشط يوماً بعد آخر في إحراق الكنائس والمساجد والمدارس الخاصة بالمهاجرين وبالسود والملونين.

والحقيقة المؤكدة بين كل ذلك هو أن العنصرية تخترق بقوة الواقع الغربي.. وتعيش داخله بشكل دائم.



بين الأبيض.. والأسود تاريخٌ طويل

وإذا رجعنا بعجلة الزمان للوراء قليلاً سنكتشف أن وصمة السواد متأصلة في تراث الرق إلى حد كبير.. وإذا كان لهذا التأصل لدى الغرب مبرر فهو بلا شك يتمثل فيما عُرِفَ من قديم بتجارة العبيد.. حيث كان من النتائج الهامة التي ترتبت على حركة الكشوف الجغرافية.. تدفُّق الهجرة من أوروبا إلى الأراضي المكتشفة.. وقام المهاجرون الإنجليز بتأسيس المستعمرات على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية.. وقد تأسست أول مستعمرة إنجليزية في عام 1607 في جيمس تاون بولاية فرجينيا.

وتوالى منذ ذلك التاريخ وصول المهاجرين الإنجليز بشكل أساسي والمهاجرين الأوربيين بشكل عام إلى مدن القارة الأمريكية.

وتضافرت عدة عوامل في دفع حركة الهجرة وتنميتها.. مثل الضيق الاقتصادي.. والاستبداد السياسي.. والاضطهاد الديني.. كما شجع القضاة والقائمون على شؤون السجن المذنبين على الهجرة إلى أمريكا.. بدلاً من قضاء مدة العقوبة في السجون.

وهكذا نشأ في هذه المستعمرات مجتمع جديد يرتبط بالولاء للوطن الأم إنجلترا.

ورغم تنوُّع الأصول التي انحدرت منها شعوب المستعمرات الأمريكية.. إلا أن اللغة والثقافة والنظم الإنجليزية ظلت هي السائدة.. ذلك أن المهاجرين الجدد كانوا يختلطون بالوافدين الإنجليز الأوائل.. ويتخذون لغتهم ويعتنقون وجهات نظرهم.. ونتج عن هذا الاندماج ظهور شعب جديد هو الشعب الأمريكي.. الذي أخذ يتميز بالتدريج عن الشعوب الأوربية التي ينتمي إليها.

وبحلول عام 1733 تمكن المهاجرون الإنجليز من تأسيس ثلاثة عشر مستعمرة على ساحل المحيط الأطلسي.. من نيوهامشير في الشمال إلى جورجيا في الجنوب.

أما في مناطق أمريكا الشمالية الأخرى.. فقد سيطر الفرنسيون على كندا ولويزيانا.. التي ضمت منابع نهر الميسيسيبي الهائلة.

وخاضت فرنسا وإنجلترا حروباً عديدة ضد بعضهما البعض خلال القرن الثامن عشر.. ومع نهاية حرب الأعوام السبعة بينهما.. كانت إنجلترا تسيطر على كندا وجميع مناطق أمريكا الشمالية الواقعة شرق نهر الميسيسيبي.

وفي 4 يوليو 1776 قام الكونجرس.. بإقرار إعلان الاستقلال.. الذي جاء فيه:

«إننا نؤمن بأن الناس خُلقوا سواسية.. وأن خالقهم قد وهبهم حقوقاً لا تقبل المساومة.. منها حق الحياة والسعي لتحقيق السعادة».

ونستطيع القول تحديداً أن تجارة العبيد كانت سائدة في روما أيام الإمبراطورية الرومانية.. فالعبيد قامت على أكتافهم بنايات الحضارات الكبرى بالعالم القديم.. وكانت العبودية من السمات الهامة.. والمتأصلة في الشعوب القديمة.

وفي القرن السابع جاء الإسلام وكان من أولياته القضاء على الرق والعبودية بشكل مباشر[4].. فدعا الرسول إلى حسن معاملة الأسرى والعبيد والرفق بهم.. وجعل لهم حقوقهم الإنسانية لأول مرة في التاريخ الإنساني.

وفي القرن الخامس عشر قصر الأوربيون الأمر على استقدام العبيد من الأفارقة.. وكانوا يرسلونهم قسراً للعالم الجديد للفلاحة في الأراضي الأمريكية.

---

(1) على عكس الأمر فى المنطقة العربية.. فالفتوحات الإسلامية والعربية كانت موجهة أصلاً لمناطق الروم وفارس وكانت المنطقة الواقعة غرباً وجنوباً هي بلاد الحبشة التي كانت مقراً لمملكة قوية.. وبلاد النوبة في وادي النيل والتي يعرف أن الفتوحات توقفت فيها إثر معاهدة «القبط» والتي وضعت حداً للصراع بين المملكة النوبية القوية والفتح الإسلامي لقرون.. وبهذا يمكن التأكد من أن تاريخ الرق في المنطقة العربية لم يكن مبرراً لإلصاق السواد بالرق حيث أن معظم الرقيق كانوا من البيض من بلاد الفرس والترك والصقالبة والروم.. ومع ذلك اندمجوا مع مرور الزمن في النسيج العربي واختفى وصم الرقيق منهم إلى الأبد وبقيت اللفظة ملتصقة بالسواد .

وكان البرتغاليون يمارسون النخاسة ويرسلون ما يستطيعون الاستيلاء عليهم من عبيد للبرتغال سنوياً من مراكز تجميع العبيد على الساحل الغربي لأفريقيا.. وكان هؤلاء العبيد يتم اختطافهم من بين ذويهم في أواسط أفريقيا.

وفي القرن 16 مارست أسبانيا تجارة العبيد التي كانت تدفع بهم قسرا من أفريقيا لمستعمراتها في المناطق الاستوائية بأمريكا اللاتينية .. ليعملوا في الزراعة بالسخرة.

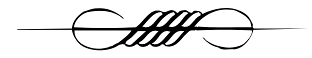
وفي منتصف هذا القرن دخلت إنجلترا كمنافس أساسي حلبة تجارة العبيد.. وبدأت إمداد مستعمراتها في أسبانيا بالعبيد.

ثم دخلت معهم المستعمرات الأمريكية في هذه التجارة اللا إنسانية.. فوصلت أمريكا الشمالية أول جحافل العبيد الأفارقة عام 1619 جلبتهم السفن الهولندية وأوكل إليهم الأعمال الشاقة هناك.

ومع التوسع الزراعي هناك في منتصف القرن 17 زادت أعدادهم.. ولاسيما في الجنوب الأمريكي.. ومن ثم قامت الثورة الأمريكية التي ارتبط اندلاعها بالأحداث التي وقعت في أواخر القرن الثامن عشر والتي قامت ضد بريطانيا.. وأدت إلى استقلال دولة الولايات المتحدة عن الإمبراطورية البريطانية.

ويرى البعض أن هناك نشاطاً غير مشروع في تجارة واصطياد العبيد كان يتم في النواحي المتاخمة للممالك الأفريقية وكانوا يجلبون ويباعون في أسواق النخاسين في العواصم العربية التي كان من الواضح أنها تغاضت عن الأمر لأسباب لم تكن بالتأكيد دينية.. ولا مجال لتوفر العبيد الأفارقة إلا بالتعدي على المعاهدة واصطياد البشر سواء عن طريق حملات القرصنة البحرية.. أو عن طريق عصابات الشطار العرب براً[5] التي تستثمر النزاعات بين القبائل المحلية في تجارتها القذرة.

ولذا فالتحامل على اللون الأسود صار أكثر حدة في الثقافة العربية الإسلامية.. مع نمو الإمبراطورية.. وانخراط العرب في اصطياد العبيد.. وبمرور الزمن نشأ ارتباط وثيق في أذهان الناس بين العبودية.. وأصحاب اللون الأسود.



(1) الشطار العرب هو مسمى كان يطلق على قاطعي الطريق والقراصنة عند العرب قديمًا .

المجتمع في جنوب أفريقيا!!

هناك في أقصى جنوب قارة أفريقيا تقع دولة جنوب أفريقيا.. التى تُعد من حيث المساحة وعدد السكان من أكبر دول القارة.. اقتصادها حالياً هو الأكبر والأكثر تطوراً بين كل الدول الأفريقية.. والبنية التحتية الحديثة موجودة في كل أنحاء البلاد تقريباً.. والتنوع في السكان هناك يجعلها من أكثر الدول في القارة الأفريقية تميزاً في ذلك على مستوى العالم أجمع.. وينقسم المجتمع الجنوب أفريقي إلى عنصرين أساسيين.. وعنصر ثالث هو في حقيقته مزيج من التزاوج بين العنصرين الأوليين.. وهكذا تكونت شعوب اتحاد أفريقيا:

- الأسمر.. وهم سكان البلاد الأصليين.. وهو أكبر مجتمع من ذوي البشرة السوداء في أفريقيا .. والزراعة هي أهم الحرف التي يشتغلون بها هناك.. وذلك بسبب وفرة المقومات الزراعية.

ويرجع تاريخ جنوب أفريقيا البشري قديماً إلى إنسان (أوستالو بيثكس أفريكانز) وهو نوع من أسلاف قدماء الأجناس البشرية.. والشواهد الأثرية التي ما زال بعضها متواجداً هناك تدل على أن شعوبًا أفريقية متعددة قد عاشت هناك في جنوب أفريقيا منذ آلاف السنين.

ومنذ ألفي عام تخصصت قبائل «الخوخو» في تربية المواشي التي حصلوا عليها من قبيلة البانتو.. ويتكونون من مجموعات عديدة منها مجموعة نجوني.. ومجموعة تسونجا.. ومن المجموعة الأولي السوازي.. وشعب الزولو.. وكان الزولو أمة مرهوبة الجانب قبل الاستعمار الأوروبي.. ومن المجموعة الثانية قبائل تسونجا.. ورنجا وتسوا.. وإلى جانب المجموعتين السابقتين جماعات فندا.. والسوتو.. وهكذا تتعدد قبائل البانتو.. وكان شعب بوش يعيش على الصيد وجمع الثمار.. وكانت جماعات من قبائل البانتو قد هاجرت من وسط أفريقيا واستقرت في المنطقة الخصبة بين جبال (دراكنزبرج) والمحيط الهندي.. وهؤلاء هم أجداد قبائل الزولو Zulu وأكسهوزا Xhosa وسوازي Swazi.. وغيرها من المجموعات.

ويقترب عدد السكان السود الأصليين من 29 مليوناً.. وهم بذلك يشكلون أغلبية سكان اتحاد جنوب أفريقيا..

- الأبيض.. وهم الأوربيون الذين توافدوا بكثرة على جنوب أفريقيا منذ مئات السنين.. وهو أكبر عدد من السكان ذوي الأصول الأوروبية في أفريقيا.. وبينهم أكبر تجمع سكاني هندي خارج آسيا.. حالياً العدد الإجمالي للبيض حوالي 5 ملايين نسمة.

وقد بدأ أولاً الهولنديون المزارعون في التسلل للبلاد من عام 1652 وعاشوا داخل مستوطنات معزولة وانتشروا بها.. وانفصلوا عن البانتو الذين عاشوا بالداخل.. ثم توالت الهجرات الأوربية للبلاد.. حيث توافد عليها المستوطنون الفرنسيون.. ثم الألمان الذين قيل في بعض المصادر التاريخية أنهم كان أول من استعمر جنوب أفريقيا.. وعاشوا وسط هذه المجتمعات فيما بعد وعرفوا بالأفريكانرز Afrikaners نسبةً للغة التي يتحدثون بها.. التي هي عبارة عن لغة خاصة مشتقة من الهولندية ممزوجة بكلمات ألمانية.. وإنجليزية.

ومنذ مطلع سنة 1800 م وصل المستوطنون البريطانيون.. ثم جاء الهنود كعمال في زراعة قصب السكر في أواخر القرن التاسع عشر.. وأوائل القرن العشرين.. وفي أثناء هذا القرن جاءت أقلية برتغالية.

ثم توالت الهجرات الأوروبية إليها من كل صوب.. ومن هنا كثر العنصر البشري الأبيض فيها ممن يطلق عليهم في علم الاجتماع « الأبارتيد ».. وغلبت سطوتهم.. وكثر عددهم على سكانها الأصليين من قبائل الزولو.. وباقي سكان البلاد الأصليين الذين كانوا مهانين ومغلوبين على أمرهم.. ودان لهم حكمها لمدة تزيد عن ثلاثة قرون متتالية..

لكن ما الذي دفع الأوربيين للهجرة إلى جنوب أفريقيا بهذا الشكل ؟

إنها ثروات البلاد الطبيعية خاصةً الماس والذهب.. حيث تشغل جمهورية جنوب أفريقيا دائماً وعلى مر التاريخ المركز الأول في الإنتاج العالمي منها.. خاصةً الذهب الذي يلعب أهم الأدوار في جذب المهاجرين.

- أما العناصر الملونة فتتشكل من خليط ينتج عن تزاوج بين الهونتنوت وهم عنصر أفريقي بالأوروبيين الأوائل.. وخليط نتج عن تزاوج بين الآسيويين أو الأوروبيين.. وتتكون العناصر الآسيوية من المهاجرين إلى جنوب أفريقيا تحت سخرة العمل من الماليزيين والهنود والباكستانيين.. ويبلغ عددهم حالياً حوالي 4 ملايين نسمة.

المجتمع.. والسياسة

النزاع العرقي والعنصري بين الأقلية البيضاء والأكثرية السوداء شغل حيزاً كبيراً من تاريخ البلاد وسياساتها.. وبدأ الحزب الوطني هناك بإدخال سياسة الفصل العنصري بعد الفوز بالانتخابات العامة لعام 1948م.. وكذلك كان نفس الحزب هو الذي بدأ تفكيك هذه السياسة عام 1990م.. بعد صراع طويل مع الأغلبية السوداء .. ومجموعات مناهضة للعنصرية من البيض والهنود.

جنوب أفريقيا من الدول الأفريقية القليلة التي لم تشهد انقلاباً على الحكم.. والانتخابات هناك حرة ونزيهة منذ تم تنظيمها عام 1994 مما يجعل البلاد قوّة مؤثرة في المنطقة وواحدة من أكثر الديمقراطيات استقرارا في القارة الأفريقيّة.

وكان البيض قد أحضروا معهم لجنوب أفريقيا ثقافاتهم ولغاتهم من أوروبا ولاسيما البريطانيين.. وجاء الآسيويون ولاسيما الهنود بثقافاتهم هم أيضاً.

المجتمع.. والدين

بحسب إحصائيات أجريت عام 2001 فإن 80 ٪ من السكان مسيحيون 5 ٪ مسلمون 2 ٪ هندوس 2 ٪ يهود 3 ٪ ديانات محلية.. بينما يشكل اللادينيون 15 ٪.. ولكي نفهم طبيعة دولة جنوب أفريقيا الاجتماعية.. والتاريخية لابد أن نتوقف عند طرفي الصراع الاجتماعي هناك.. أولاً الأبارتيد كجنس حاكم.. وثانياً «قبائل الزولو» كجنس محكوم.. ونقترب أكثر من نسيجهم الإنساني الخاص جداً.. والذي يميزهم عن سواهم من قبائل أفريقيا بشكل خاص.

السيادة للأبيض

يقوم مفهوم الأبارتيد على فكرة سمو الجنس الأبيض على باقي الأجناس البشرية الأخرى خاصةً الأفارقة.. والملونين.. والهنود.. وترسيخ السيادة البيضاء إلى الأبد أو كما صاغ ذلك القوميون منهم في مقولتهم الشهيرة :

«إن الرجل الأبيض يجب أن يظل سيداً بكل ما يحمله لفظ السيادة من معاني العنف».

وكانت الكنيسة الإصلاحية الهولندية تؤازر تلك السياسة.. وقد أمدتها بالأساس العقائدي القائم على الأسطورة التي مفادها أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار وأن السود نوع تابع.. وكان انتصار القوميين نهاية لسيادة الإنجليز على الأفريكان.. بالرغم من كل ما يعنيه مسمى « تفرقة عنصرية » من معاني غاية في الظلم.. والغباء الإنساني.. وما كان يمثله هذا الاتجاه الإنساني الأحمق ـ وللأسف مازال في بعض الدول ـ من تغلغل في العديد من دول العالم.. وعبر كل المراحل التاريخية منذ قديم الأزل.. وما يمثله من توجه لدى بعض الشعوب يصل لدرجة « العقيدة » في تعاملهم مع أبناء اللون الأسود.. ونظرتهم إلى هؤلاء باعتبارهم عبيداً ملكاً لأيمانهم.. لا يتمتعون بأية حقوق.. بل يصل الحال بهم لمعاملتهم كأنهم حيوانات.

بأمر القانون

في عام 1950م أصدرت الحكومة قرارين يعتبران حجر الزاوية في التمييز العنصري وهما :

1- قانون السكان والتسجيل .

2- قانون المناطق الجماعية أو مناطق المجموعات .

وقد سمح القانون الأول بتصنيف السكان على أساس عرقي وبطريقة عشوائية مما نتج عنه أحيانا التفريق بين أعضاء الأسرة الواحدة اعتماداً على لون البشرة وتجاعيد الشعر وسمك الشفتين.

أما قانون المناطق فيعتبر أساس الأبارتيد السكاني.. وبناء عليه .. فإذا أراد البيض تملك الأراضي .. أو المساكن التي يمتلكها الأفارقة أو الهنود فما عليهم إلا أن يعلنوا المنطقة بيضاء.

كما أنه بناء على ذلك القانون بدأت حركة نقل جماعية للسكان بالقوة في حالة قرب المناطق التي يعيش فيها الأفارقة من مناطق سكان البيض.. من هنا اندلعت شرارة حملة واسعة للعصيان المدني بالشكل الذي سنتحدث عنه في حينه.

الزولو

تعتبر قبائل الزولو هم سكان البلاد الأصليين ويزيد عددهم الآن عن 10 ملايين نسمة.. وتتميز هذه القبائل بالعديد من الخصائص والمميزات الخاصة التى تنفرد بها عمن سواها من باقي الأجناس البشرية.. وتمتاز بنمط حياة مختلفة.. وفريدًا من نوعه في عالم القرن الحادي والعشرين.

لم يحدد باحثو التاريخ متى ظهرت الزولو كقبيلة ذات شأن بالتحديد على الخريطة السكانية لجنوب أفريقيا.. ولكنهم رجحوا بدايات وجودها الفعلي بعام 1620 وتعرف أراضي الزولو بجمالها الرائع وتوجد في إقليم ناتال الذي يطل على البحر.. وتوجد بها سلاسل جبلية دائمة الخضرة وتنحدر منها سهول وغابات طبيعية نادرة الأشجار.. ويعتمد الاقتصاد الحديث لتلك المناطق على زراعة قصب السكر ويزورها السياح الراغبون في الوقوف على حضارة الزولو..

وبعد خوضهم صراعاً منظماً وطويلاً ضد سياسة الفصل العنصري ارتكب فيها الرجل الأبيض المذابح المروعة وحدد فيها إقامتهم داخل معسكرات محددة.. حيث خرجوا من المدن الأساسية إلى المناطق النائية.. ولم يسمح لهم ببناء المدارس ومنعوا من الاختلاط بالبيض.

وكان النظام العنصري يتضمن تحديد إقامة وتواجد أفراد قبائل الزولو السود في المدن الرئيسية في جنوب أفريقيا بساعات محددة للعمل وخدمة البيض فقط.. وكانت تنطلق صفارات الإنذار تنبأ بانتهاء تواجد السود في المدن الرئيسية.. وعندها يكون عليهم الخروج فوراً قبل أن يتم تعرضهم للعقاب والمساءلة.

ومع نهاية تلك السياسة العنصرية في بداية التسعينيات كان الزولو قوة سياسية مخضرمة لا يستهان بها ممثلة في حزب الحرية وجعلوا شعار الحزب الفيلة.. وفيما بعد أقر الزولو بأن حزب المؤتمر الأفريقي الذي يمثله نيلسون مانديلا لا يمثل مصالحهم القبلية. وكان هذا الإقرار من جانبهم غريبًا وغير مبرر.

ويعيش الزولو حياة قبلية بسيطة تمثل الأسرة فيها الكيان الأساسي حيث يعلمون فتيانهم منذ الصغر احترام من هم أكبر منهم سناً.. ولكن فتيان الزولو لديهم قوة متميزة عمن يماثلونهم في العمر.. يفرق الصغار منذ سن السابعة بعد احتفال تثقب فيه فتحة في الأذن وتوضع حلقة ذهبية كبيرة بها.. فيذهب الفتيان لمساعدة آبائهم ورجال القبيلة في رعي الأبقار والماعز وعندما يشتد عودهم قليلاً يصبحون مسؤولين عن حلب الأبقار والعناية بمشتقاتها.. وطوال تلك الفترة يتلقون دروساً قصصية عن بطولات القبيلة وعاداتها وعند سن الرابعة عشرة يفصل الفتيان من أسرهم ويزج بهم في كتائب المحاربين حيث يخضعون لتدريبات قاسية تجعلهم مؤهلين لمواجهة الحياة.. وعندما يتزوج فتى الزولو يفرض عليه حلق شعره إلا خصلة مضفرة في وسط الرأس عليها قرص معدني يميزه عن الأعزب من الرجال.

الفتيات عند سن السابعة يساعدن في تنظيف الخيام وجلب مياه الشرب ومساعدة الأمهات في طهي الطعام ويتعلمن حرف جداتهم مثل صناعة السلاسل والحقائب من القش حيث يعتبر الزولو من أمهر الحرفيين الأفارقة في هذا الفن..

وتمتاز قبائل الزولو بعادات عجيبة وغريبة ومن هذه العادات أن الفتاة تتزوج عند سن 14 سنة.. وعندما تحمل يجب أن ترتدي قطعة من جلد الأيائل « الغزلان» شرط أن يصطاده زوجها بنفسه ويقوم حماها بإعداده ودبغه ولفه بعقد من النحاس يفك منه بعد ولادة الطفل ويعتقدون أن ذلك يجلب القوة والثروة للطفل القادم.

يسمح الزولو بتعدد الزوجات.. ويدفع الرجل ما يشبه التعويض أو مهراً لوالد عروسه عبارة عن أبقار عند خروج الفتاة من بيت أهلها.

وهناك ممارسات خاطئة كثيرة لعل أهمها هو ما يتمثل في أنه حال عقم المرأة وعدم تمكنها من الإنجاب ترسل شقيقتها لإنجاب طفل للرجل ثم تعود بعدها لوالديها.

تجتمع القبيلة على احتفال الزواج في الليالي المكتملة القمر لأن ضعف ضوء القمر يجلب الفأل السيئ ويسير العريس وأهله في وسط راقص وصاخب لبيت العروس ولا يحضر- والدا العروس احتفال الزواج بل أصدقاء العروس وهم يحملون أغراضها الخاصة على رأسهم ويجب أن تحضر- العروس هدية لحماها.. وتبارك ساحرة القبيلة الزواج في طقوس خاصة.

ويمتاز أبناء قبائل الزولو بشراستهم في القتال والحرب حيث يرتدي فرسان القبيلة تنورات من جلود الحيوانات التي يصيدونها .. وغالبا ما تكون من جلد الفهد ودرعًا من المعدن المكسو بجلد القطط المتوحشة أو الأبقار وغطاء رأس ذي ذيل معدني..

وللألوان مغزى هام في حياة الزولو فاللون الأحمر يعني القوة ودفء المشاعر وانتظار الحبيب والأزرق يعني الولاء وتوارد الخواطر مع الحبيب .. والأبيض النقاء والأسود الاستعداد للبس تنورة الزواج السوداء والغضب .. والأخضر للشباب والوردي للبساطة والهدوء والفقر.

على الرغم من كون قبائل الزولو اعتادت على الإيمان بالتوحيد .. ولـديهم الكثـير مـن العـادات والتقاليد التي تتوافق إلى حد كبير مع الديانات السماوية غير أنهم كانوا غارقين في اعتقادات وهمية منها إيمانهم بوجود أرواح وغالباً ما تأتي من أمواتهم وتهيم في الغابة التي كانوا يتقون شرها .. ويصورونها على أنها مخلوقات ضخمة كثيفة الشعر تقتل من لا يقدم لها القرابين!!!..

وبخلاف ما هو شائع عن قبائل الزولو فإن من عاداتهم الحميدة احترام الضيف إلى حد بعيد حيث ينظرون إلى السائح والزائر والضيف نظرة احترام وتوقير غير أن الأوضاع الاقتصادية الصعبة للغاية لدى الكثير من أبناء القبائل دفعتهم للتفكير في مجال السلب والنهب والجنوح إلى العنف.

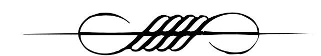
وتتحاكم قبائل الزولو إلى الآن بنظام ملكي وعندهم طاعة عمياء لأمرائهم حيث يتمتع الأمراء والملوك بنفوذ واسع ومطلق إلى حد كبير.

ومع انتهاء الحقبة الزمنية السوداء بحق سكان جنوب أفريقيا يوم أن تحرروا عام 1994م من النظام العنصري البائد فتحت الآفاق أمام قبائل الزولو وعلاقتهم بالعالم الخارجي وهنا قام المسلمون في جنوب أفريقيا بواجبهم الإنساني والدعوي تجاه قبائل الزولو التي حرمت من كل شيء.. وقامت المنظمات الإسلامية العالمية بافتتاح عشرات المراكز الإسلامية والدعوية في تجمعات قبائل الزولو كما تمكن المسلمون من إقامة المستوصفات الطبية وغيرها من الخدمات الإنسانية.. وتمكنوا من اقتحام الحاجز بين الإسلام.. وبين قبائل الزولو انتهت لاعتناق الآلاف منهم الدين الإسلامي .

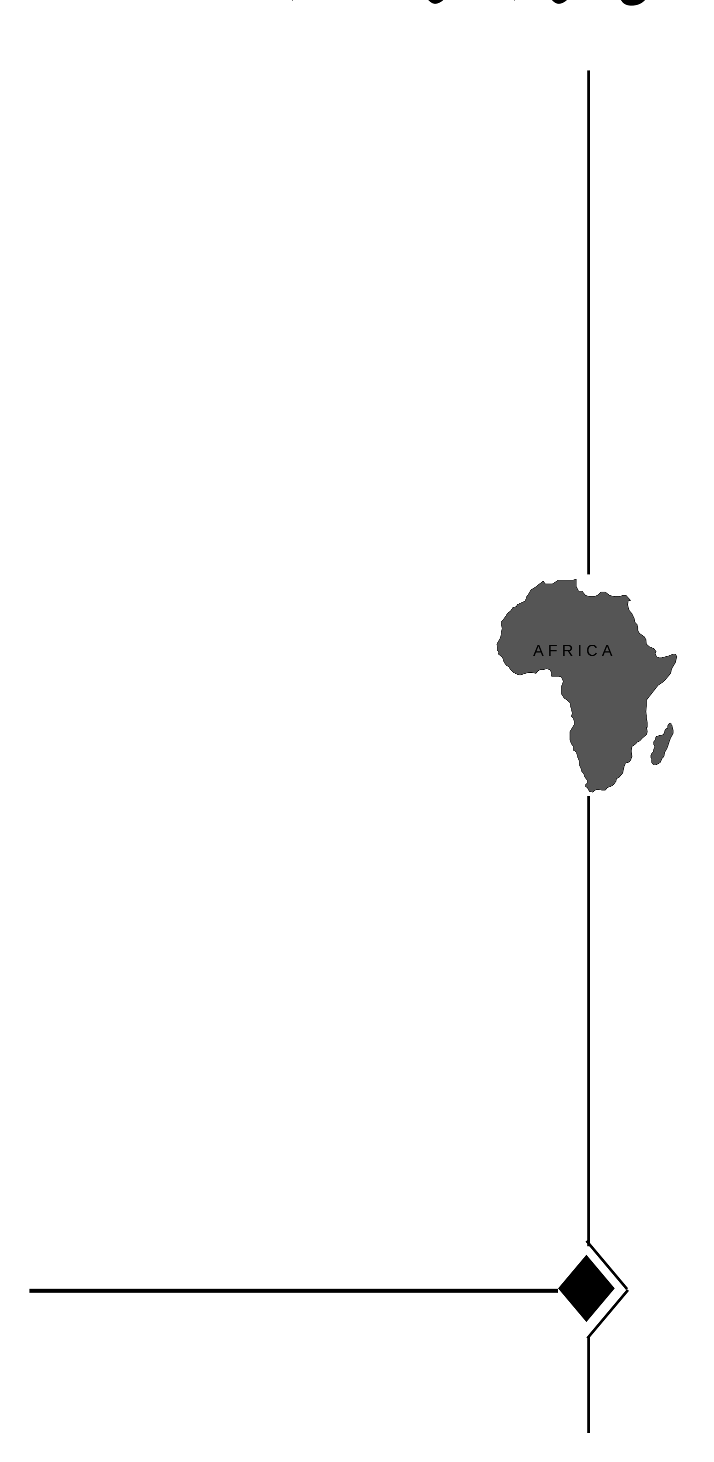
وما بين عنصري النسيج الاجتماعي المشار إليهما «الأبارتيد» و«الزولو» وباقي السكان الأصليين من السود وغيرهم من الأجناس الملونة.. ضاع كثيرٌ من مفاهيم الوطنية.. حتى نال السود حقوقهم بالرغم من كراهية غير قليل منهم لذلك.. فمنهم أعداد هائلة كانت تقاتل في صفوف المستعمِرين – «الأفريكانو.. البيض» وترى في مانديلا شراً وشيوعياً أحمر يريد أن يحرمهم من الخير الذي جاء به السادة البيض.. فقد جاءوا لهم بالإنجيل والدخان والموسيقى والثياب الحمر المرقشة.. أما هو فقد تخيلوه رجلاً جاء لهم بالذُّل والخنوع.. والراحة من التفكير والمبادرة.. وهي للأسف نعمة يتوهمها العبيد المستكينون دائماً في كل زمانٍ.. ومكان

واستمر الحال على هذا المنوال طيلة سنوات المعاناة.. حتى سقط حكم الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا.. وفتح التاريخ لهذا البلد صفحةً جديدة تماماً عن سابقتها.. فيها نسيم الحرية يتنسمه الجميع على السواء.. بعد أن بدأ شيئاً.. فشيئاً سكان البلاد الأصليون في التمرد والثورة على ما يعانونه على يد البيض من ذل.. وعبودية.. ومهانة.. وبعد سنوات من توالي الثورات.. جاء إليهم النصر بعد كل هذه القرون الطوال من المعاناة على يد «مانديلا».. ووصول حزب المؤتمر الوطني الأفريقي للحكم.. وهو الحزب الأكثر شعبية في جنوب أفريقيا منذ إنشاء حكم الأغلبية في مايو 1994م وأيده التحالف الثلاثي مع مؤتمر نقابات جنوب أفريقيا.. والحزب الشيوعي (الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا).

وتحرروا من قبضة العنصريين الأوربيين.. وقدم السود تضحيات كبيرة على مدار تلك السنين.. إلى أن نالوا حريتهم .. وكانت فرحة للسود من قبائل الزولو الرئيسية وقبائل أخرى وتحطمت العنصرية البغيضة وصارت الأولوية في الوظائف والقيادات الحكومية للسود أولاً.. ثم بعد ذلك الملونين.



الفصل الأول من هو نيلسون مانديلا !!



«نيلسون مانديلا » هو أول رئيس وطني أسود منتخب في جمهورية جنوب أفريقيا.. تقلد الرئاسة وهو في الخامسة والسبعين من عمره.. وكان يستطيع أن يبقى حاكماً لدولته طوال حياته إن أراد.. لكنه غلب مصلحة وطنه.. وشعبه على حب السلطة.. واعتزل الرئاسة عندما استشعر أنه لن يستطيع القيام بمهامها.. ولعل ذلك هو أهم ما ميز شخصية نيلسون مانديلا وجعل منه رمزاً لنضال سكان جنوب أفريقيا على اختلاف أعراقهم.. ومحلاً لإجماعهم.. وهو صدق إيمانه بحقوق أمته.

رجل القرن

يعد « مانـديلا » أبـرز المناضـلين في القـرن العشر-ين.. سـيرته تـتلألأ في سـماء التـاريخ الإنسـاني كالأسطورة التي تضيء ولا ينقطع نورها.. حياته مليئة بالكفاح في سبيل إعـلاء كلمـة الحـق ونبـذ نظرية الرجل الأبيض.. استطاع رغم سجنه و اعتقاله أن يقف ضد المستعمرين البيض في الجنـوب الأفريقي المحموم .

كان معارضاً للحكم في جنوب أفريقيـا الـذي كـان في إمـرة البـيض.. و كـانوا يحكمـون بنظـام التمييز العنصري التام الذي ينكر على الغالبية السوداء حقها في الانتخاب و إدارة شؤون البلاد بل ويحق لهم أن ينتزعوا أمـلاك السـود و يجـردوهم مـن أرضـهم و أرض أجـدادهم.. التحـق مانـديلا بركب المقاومة عام 1942م بانضمامه إلى المجلس الأفريقي القومي الذي يدعو للدفاع عن حقـوق الأغلبية السوداء في جنوب أفريقيا .

وفي عام 1961م تم تصعيد مانديلا كرئيس للجنـاح العسـكري للمقاومـة المسـلحة.. وفي عـام 1962م تـم اعتقالـه.. وحكـم عليـه بالسـحن 5 سـنوات بتهمـه غريبـة جـداً.. وهـي «السـفر غـير القانوني.. والتدبير للإضراب».. ثم حكم عليه بالسجن مدى الحياة عـام 1964 بتهمـة التخطـيط لعمل مسلح.

وبعد عدة سنوات متصلة من الجهود الدولية و جهود المجلس الأفريقي القومي في يوم 11 من فبراير عام 1990 تم إطلاق سراح نيلسون مانـديلا بـأمر مـن رئـيس جنـوب أفريقيـا « فريـدريك ويليام دى كليرك » الذي أوقف أيضاً الحظر المفروض على المجلس الأفريقي القومي.

لمانديلا ثلاث بنات.. واحدة من زواجه الأول.. واثنتان من زواجه الثاني.. وولدان.. الأصـغر يـدعى «ماديبـا ثيمبكـيلي».. لقـي حتفـه في حـادث سـيارة عـام 1969أثنـاء سـجن أبيـه ورفضـت السلطات آنذاك السماح لمانديلا بحضور جنازة ولده.. والأكبر يدعى «ماكـاتو» تـوفي مـؤخراً عـن عمر 54 عاماً.

ومن أصعب اللحظات في حياته عندما وقف بكل شجاعة.. ومن مقر مؤسسته في أحد أيام يناير عام 2005 ليعلن وفاة ابنه البكر بالإيدز.. ويعتبر مانديلا الوحيد الذي تحدي بشجاعة المحرمات «التابو» في بلاده والتي تمنع الحديث عن هذا المرض.. فبلغة الأرقام نعلم أن في جنوب أفريقيا خمسة ملايين حاملين للمرض وأن هذا المرض يقضي- يوميًا على 600 شخص.. لذا لم يبك.. إنما حول همه وحزنه الخاص على وفاة أكبر أبنائه إلى وسيلة لمكافحة ذلك المرض اللعين.. وفي هذا السياق قال مانديلا : «دعونا نلقي الضوء على مرض نقص المناعة المكتسب ليبدو وكأنه مرض عادي كالسرطان والدرن الرئوي»..

ونفى مانديلا ربط مرض نجله بالحملة التي يقودها منذ عدة أعوام للمطالبة بالمزيد من الانفتاح حول الوباء.. ونوه قائلاً : «أتمنى مع مرور الوقت أن نلحظ أهمية التحدث علانية عن أولئك الذين قضوا نحبهم بالإيدز.. وألا نشعر بالعار تجاههم.. فهم أولاً.. وأخيراً بشر».

لا تنازل

صلب لأقصى درجة في التمسك بتلك الحقوق طول مسيرته النضالية بلا هوادة أو مساومة.. شعاره « لاتنازل.. ولا استسلام »ولم يقدم مانديلا أي تنازلات فى سبيل كفاحه الطويل ضد التفرقة العنصرية سواء فى بلاده أو خارجها ونال إعجاب الجماهير فى شتى أنحاء العالم من مختلف الألوان والجنسيات والأعمار والثقافات ..

شاب دائماً

في ابتسامة نيلسون مانديلا شيء شديد الخصوصية.. إنها صادقة صافية.. ومليئة بهدوء النفس.. وتجسّد إلى ذلك قناعات من قاد شعبه للحرية وقوةَ الشخصية.. إنها ابتسامة شبيهة بالذهب الخالص.. الذي تم تخليصه من كل الشوائب في وطيس الألم العظيم.. دخل السجن شاباً يقاوم نظام الفصل العنصري في بلده جنوب أفريقيا.. خرج شاباً رغم شيخوخته وبنفس حماس الماضي.. لم يذكر عنه أنه كتب استرحاماً لطاغية ولم يؤلف مراجعات فكرية أو أطروحات انهزامية.. لم يتبرأ من مقاومته لحكومة بلاده العنصرية.. لم يكتب صك غفران وشهادة لجبار من جبابرة الأرض.. وما أكثر من فعلوا ذلك !

الفارس

وعندما وصل للحكم.. وأصبح رئيساً ..لم تتغير مبادئه.. يضرب الفارس النبيل (مانديلا) أروع المثل في العزة والإباء وهو يقف أمام طاغية العصر جورج بوش ويقول :

« لن أقابله إذا جاء جنوب أفريقيا.. لأنه رجل مارق يرأس نظامًا مارقًا كذب على العالم واحتل العراق وهو يختلق الأكاذيب »..

ثم وفى مانديلا بوعده ولم يقابل بوش عندما زار بلاده.. وعندما وعد أبناء وطنه بأنه سيجعل من « جنوب أفريقيا » أول دولة إفريقية تنجح في الحصول على شرف تنظيم كأس العالم لكرة القدم.. وفى بوعده.. ونجح في ذلك.. و انتشرت في جميع أنحاء البلاد.. وعلى كل مواقع الإنترنت إعلان جمع التوقيعات.. وكان اسم « مانديلا » هو محور الإعلان.

عرف عنه شدة وفائه للآخرين.. فعلى الرغم من مرور نحو 50 عاماً على انفصاله عن زوجته الأولى شارك نيلسون مانديلا في تشييع جنازتها.. كنوعٍ من الوفاء للإنسانة التي شاركته معاناته.. وبداياته الأولى.. واصطحب معه عند تشييع الجنازة.. وحضور مراسمها الجنائزية التي أجريت في جوهانسبرج زوجتيه الثانية «أويني مانديلا».. والثالثة «جراسا ماشيل ».

كما تميز بتسامحه مع أعداء الأمس بعد أن انهارت دعائم النظام العنصري البغيض.. وأذعن البيض إلى القبول بالعيش كغيرهم مواطنين في ظل دولة المساواة والديمقراطية.. فلم يسع يوماً لتصفية حساباته القديمة مع من ظلموه.. وسجنوه.. وأضاعوا أجمل سنوات حياته بين القضبان.

وخلال فترة حكمه شهدت جنوب أفريقيا انتقالاً كبيراً من حكم الأقلية إلى حكم الأغلبية.. ولكن ذلك لم يمنع البعض من انتقاد فترة حكمه لعدم اتخاذ سياسات صارمة لمكافحة الإيدز من جانب.. ولعلاقاته المتينة من جانب آخر بزعماء دول كالقائد العقيد معمر القذافي و فيدل كاسترو المعروفين بعدائهم لأمريكا.. والغرب ..

جائزة نوبل

وقد حصل نيلسون مانديلا مع الرئيس فريدريك ديكليرك في عام 1993 على جائزة نوبل للسلام.. كما غدا اسم «نيلسون مانديلا» علماً.. ورمزاً للبلد.. بعد أن تحول إلى رمزٍ للثورة ضد كل ما يمت للتفرقة العنصرية.. من قريبٍ.. أو بعيد.. وأطلق اسمه على الشوارع.. والميادين.. وبعض الجامعات.. وبعض المدن.. بل وبعض المحلات.. والمتاجر.. ليس في بلده الأفريقي فحسب.. ولكن في العديد من دول العالم.. وأقيمت له التماثيل في بعضها ـ مثل لندن ـ كما أقيمت له التماثيل في وطنه.

أعجب وأغرب ما في شخصية مانديلا هو زهده التام في السلطة.. والحكم.. بدليل تنازله عن الرئاسة.. وعدم ترشحه مرة أخري بعد فترة رئاسية واحدة لم يكررها.. ليعطي النموذج الأمثل لكل حاكم.. ظالم.. مستبد.. في الزهد في الجاه والمنصب بل والدنيا كلها.. مع أن كل المبررات كانت تدعو مثله للتشبث بالمنصب وعدم إفلاته بعد أن ظفر به بعد قرابة أربعين عاماً من الكفاح.

وهذا يعطي للجميع درساً هاماً أن الوصول للحكم ليس غاية في ذاته.. وأن هناك في الحياة ما هو أفضل وأجمل وأسعد من كراسي السلطة ومناصب السلطان.. وأن الكرسي لا يعطي لصاحبه قيمة ولا وزناً.. ولكن الإنسان هو الذي يعطي للمنصب والكرسي قيمة.. ووزناً أفضل من وزنه.. وذلك بعدله ونزاهته وإخلاصه ورحمته وإحسانه..واستغلال منصبه الاستغلال الأمثل في صنع الخير للناس وبذل المعروف لهم جميعاً.

وقد قال رئيس الوزراء البريطاني جوردون براون أثناء مراسم الكشف عن تمثال نيلسون مانديلا المواجه لمبني البرلمان في لندن : «إنه شخصيًا يعتبر مانديلا أعظم زعماء القرن العشرين في العالم أجمع.. قبل تشرشل وروزفلت وغيرهم».. وأضاف : إذا كانت أفريقيا أنجبت أعظم زعماء القرن العشرين فمن الطبيعي أن يظهر في القارة زعماء مماثلون في الحكمة والتأثير في القرن الحادي والعشرين.

مانديلا.. أثناء محاكمته

..ونعود لنرصد بعض ملامح شخصية نيلسون مانديلا.. ونتوقف من خلال هذه السطور عند فقرات من دفاعه عن نفسه أثناء محاكمته بتهمة التآمر على نظام الحكم في بلاده.. فأثناء المحاكمة ألقى خطاباً في الدفاع عن نفسه استغرق خمس ساعات.. ختمه بالقول:

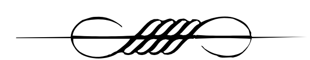
«كرّست حياتي لكفاح الشعب الأفريقي .. وحاربت هيمنة البيض بقدر ما حاربت فكرة هيمنة السود.. كنت دائماً أرفع عالياً نموذج المجتمع الديموقراطي الحر.. حيث الجميع يعطون فرصاً متعادلة ومنسجمة.. وإذا اقتضى الأمر سأموت من أجل هذا الهدف».

وقد انتخب مانديلا أثناء المحاكمة رئيساً لاتحاد طلاب جامعة لندن.. الجامعة التي لم يدخلها أبداً. كانت تلك رسالة دعم من شباب بريطانيا نفسها ترافقت مع الدعم الأفريقي والعالمي.. لكن ذلك لم يمنع الحكم عليه بالسجن مدى الحياة.. وتسبب الحكم بردود شاجبة من الرأي العام العالمي.. ورأت أوروبا وأمريكا في مانديلا صديقاً للمستقبل تريد حكومة بريتوريا العنصرية قصف مستقبله. لكن هذه الحكومة التي اعتقدت أن ذكر مانديلا سيتلاشى بعد سجنه بأيام أو سنوات قليلة.. فوجئت بأن سجنه المديد سيبلور قضية الحرية والعدالة في جنوب أفريقيا .

وكان سجنه في جزيرة روبن محط اهتمام الأحرار.. وبعد إطلاقه تحوّلت غرفته في السجن إلى مركز سياحي.. يقول عنه مانديلا: «خلال ثلاثة قرون كانت هذه الجزيرة سجناً لكل الوطنيين المبعدين وكبار المقاومين والديموقراطيين. وإذا كان ذلك حقاً هو رأس الرجاء الصالح فإن هذا الرجاء مدين لأرواح أولئك المقاتلين ورفاقهم».

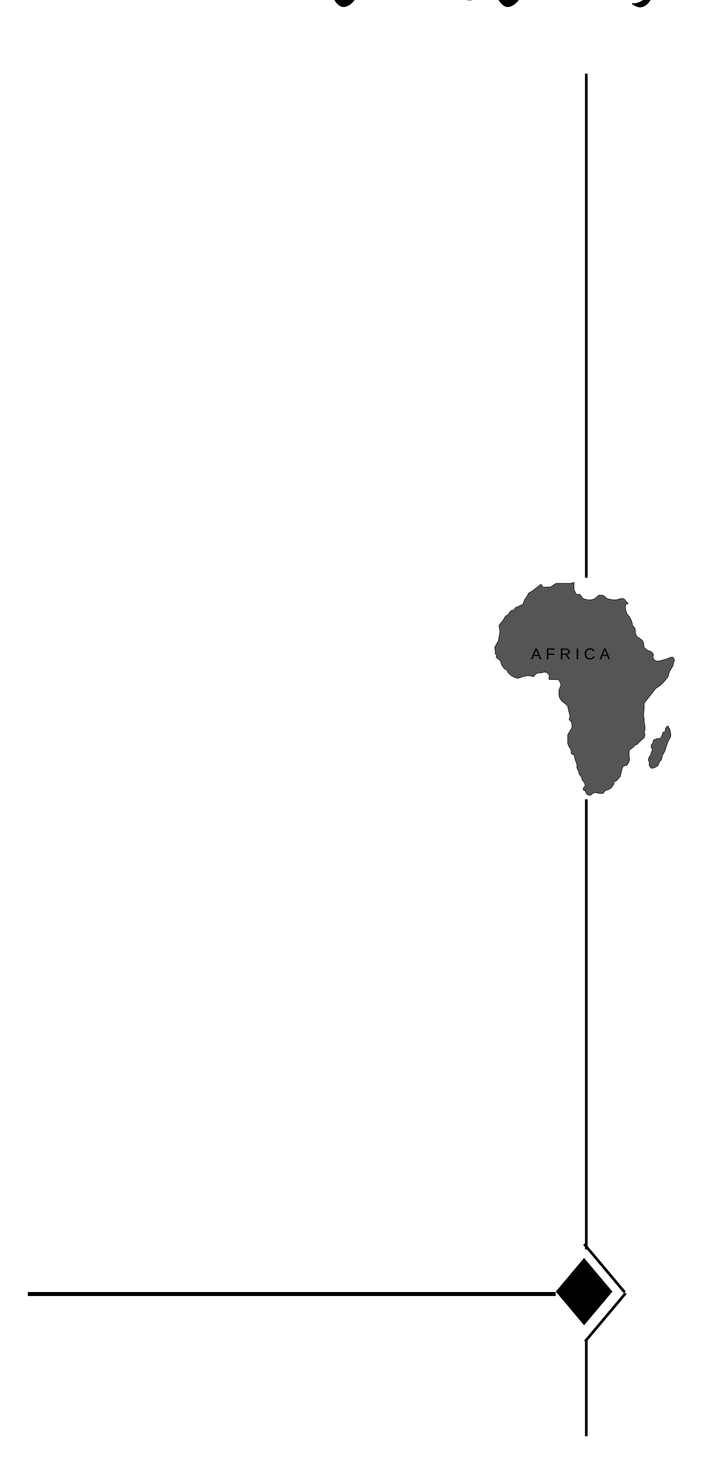
وفي عام 1985 عرض على مانديلا إطلاق سراحه مقابل وقف المقاومة المسلحة.. إلاّ أنه رفض العرض.. وبقي في السجن حتى 11فبراير 1990م.. عندما أدت الضغوط المحلية والدولية إلى إطلاق سراحه بأمر من رئيس الجمهورية فريدريك ديكليرك الذي شارك مانديلا عام 1993 جائزة نوبل للسلام.

لقد ترك مانديلا الحكم ليعيش ملكاً متوجاً على قلوب العالم جميعاً .. وهذا ذكاءٌ يحسب له.. لا عليه ..وهو بذلك أبقى في ذاكرة.. وقلوب شعبه أكثر من استمراره في منصبه حتى الموت .



الفصل الثاني

مانديلا.. الفقر .. عنوان الطفولة !!



نحن الآن أواسط عام 1918..

العالم على صفيحٍ ساخن..

فالحرب العالمية الأولى تضع أوزارها..

ووباء « الأنفلونزا» اللعين ينتشر في كل بلاد العالم أجمع.. ويحصد مئات الأرواح بلا هوادة ..

قصر « فرساي » المقر الرئيسي للحكومة الفرنسية يستقبل وفد « المؤتمر القومي الأفريقي» الذي ذهب إلى هناك لينقل للعالم أجمع معاناة الملايين من أبناء الشعوب الأفريقية من الاستعمار ..

وكان في جنوب أفريقيا مازال البيض يتفننون في استنزاف آدمية السود.. وإذلالهم.. وفي واحدة من أجمل مناطق البلاد وأكثرها فقراً.. وبين المساحات الشاسعة من التلال المتموجة بالعشب الأخضر الشاحب والأكواخ الدائرية المسقوفة بالقش.. والرعيان الذين يسوقون قطعانهم.. حيث تقع قرية قونو بمنطقة ترانسكاي في أفريقيا الجنوبية على بعد حوالي 600 ميل جنوب جوهانسبرج.. وهي قرية صغيرة على ضفاف نهر «مباش» في مقاطعة «أومتاتا»

وتحديداً في الثامن عشر من يوليو من هذا العام.. ولد « مانديلا » واسمه الأول الحقيقي «رولي هلا هلا ».. وأحيانا يطلق عليه اسم (ماديبا).. لكنه في الحقيقة اسم قبلي محلي يطلق على عائلة مانديلا.. وهو اسم يدل على التقدير والاحترام.

وفي المراحل الأولى من صباه كان مانديلا يسمع أخبار أجداده ملوك شعب التمبو.. فيشعر أنه في زمن لا يعترف بالملكيات الغابرة.. خصوصاً بوجود التمييز العنصري وانهيار المجتمع الزراعي التقليدي. ويصف أنطوني سامبسون كاتب سيرة مانديلا منطقة ترانسكي التي شهدت ولادته بأنها «واحدة من أجمل مناطق البلاد وأكثرها فقراً.. فالآفاق الشاسعة من التلال المتموجة بالعشب الأخضر الشاحب والأكواخ الدائرية المسقوفة بالقش.. والرعيان الذين يسوقون قطعانهم.. تقدم صورة من «العهد القديم» عن الحياة الريفية الأزلية بأبهى صورها. إلا أن هذا الجمال سطحي فحسب.. فالأرض أخذت تضيق بالسكان والتربة الرقيقة متآكلة إلى درجة لا يمكنها تغذية أكثر من مجموعة قليلة من الأبقار والأغنام العجفاء فيما يزرع السكان مساحات قليلة متفرقة بالذرة».

وكان والده أحد رؤساء القبائل.. ووارث الزعامة عن أجداده الذين كانوا يعتبرون ملوكاً.. وقبل مولد «مانديلا» بثمانية أعوام ضمت منطقة «ترانسكي» إلى اتحاد جنوب أفريقيا عام 1910 .

الأبوان

لا توجد معلومات كثيرة عن والدة « نيلسون مانديلا » أكثر مما ذكر في أكثر من موضع من كونها ذات جذور كردية من إقليم كردستان.. وأنها كانت الزوجة الثالثة لوالد «نيلسون» من بين أربع زوجات تزوجهم الأب.. و كانت تسمى «نوز ـ كيني ـ فاني».. وهي تنتمي لعشائر «الإكسهوسا».. وعندما ولد «نيلسون مانديلا» كان له ثلاثة عشر أخاً.. أربعة ذكور وتسع إناث.. بينهم ثلاث شقيقات من نفس الأم.. والأب.. بينما كان هو الأصغر بين الأبناء جميعاً بالنسبة لأبيه.. وأمه.

وأقام مانديلا بين المدرسة وبيت أمه أو بيوت زوجات أبيه.. حتى قال لاحقاً أنه في جميع مراحل حياته كان يشعر بالراحة مع النساء.. «خصوصاً القويات القادرات على إقامة علاقات صداقة مجزية».. وعاش مانديلا طفولة قلقة بعد طرد والده هندراي من منصبه كشيخ للقبيلة .

مشاكسات الأب

دخل والده مع السلطات الحكومية البيضاء في منازعات نتج عنها حرمانه من الرئاسة في شعبه « التمبو » الذي كانت تحكمه أسرة والد مانديلا منذ زمنٍ طويل.. حين رفض الأب المثول أمام القاضي للتحقيق في شكوى ضده تقدم بها أحد الرعايا البيض.. وفي تلك الأيام لم يكن لفرد أن يعصي أمرًا لممثل حكومة البيض واعتبر تصرف الوالد اعتراضاً على حكم البيض.. واتهم فورًا بالعصيان ولم يجر استجواباً أو تحقيقاً فقد كان ذلك حقًا للموظفين البيض فقط.. وقام القاضي بعزل والده ببساطة وأنهى بذلك رئاسة عائلة مانديلا للإقليم .

يقول مانديلا في سيرته: الشيء الوحيد الذي منحه إياي والدي بخلاف الحياة.. والبنية القوية.. والصلة الوثيقة بعائلة «تمبو» الملكية هو رولي هلاهلا.. اسمي عند الميلاد. والمعنى الحرفي لاسمي هو نزع فرع الشجرة ولكن معناه الدارج هو المشاغب. ورغم أنني لا أومن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان لكن في السنوات التى تلت صار الأصدقاء والأقرباء يعزون الزوابع التى سببتها وواجهتها إلى اسمي. ولم أكتسب اسمي الإنجليزي المألوف حتى يوم التحقت بالمدرسة.

يضيف مانديلا: لم أكن وقتها أدري بتلك الأحداث ولكني تأثرت بها. لقد فقد والدي ـ الذى كان من النبلاء بمقاييس ذلك الزمن ـ ثروته ولقبه. وقد حرم من معظم قطعانه وأرضه ومن ريعها. ونتيجة لعسر ظروفنا فقد رحلت أمي إلى قونو.. وقضيت أيام صباي فيها ومن هناك يمكنني استعادة أولى ذكرياتي.

الفقر عنوان الطفولة

كانت قرية قونو فقيرة جدا.. وكانت الذرة والفاصوليا والفول والقرع تتمثل الجزء الرئيسي- من طعامنا ولم يكن ذلك لتفضيلنا إياها ولكن لأن الناس لم يكن في مقدورهم الحصول على أطعمة أخرى. أما العائلات الأكثر ثراء فكانت تضيف إلى ذلك الشاي والقهوة والسكر.

أما المياه المستعملة في الزراعة والطهو والغسيل فكانت النسوة ينقلنها من الجداول والينابيع ..وفي صغري كنت أقضي معظم وقت فراغي في المروج ألعب وأتعارك مع صبية القرية وكان الصبي الذى يقضي وقته ملتصقا بأمه أنظر إليه على أنه مخنث. وفي الليل كنت أقتسم طعامي وبطانيتي مع أولئك الصبية.

وعندما عملت بالرعي لم أكن قد تجاوزت الخامسة حيث كنت أسهر على الأغنام والعجول. وذات يوم تلقيت درسًا من حمار جامح.. كنا نتبادل تسلق ظهره وحينما جاء دوري قفزت على ظهره فجمح الحمار باتجاه شجرة شوكية وألقى بي بعد أن خدشت وجرحت الأشواك وجهي وسبب لي الارتباك في حضور أصدقائي. ورغم أن الفاعل كان حمارا تعلمت قسوة إهانة المرء لغيره. فقد كنت أهزم زملائي دون إشعارهم بالمهانة. وعادة كان الصبية يلعبون بمفردهم لكن أحيانًا كنا نسمح لأخواتنا بمشاركتنا في ألعاب مناسبة لهم.

لم يقابل الطفل الصغير سوى قليل من البيض في قونو. فقد كان القاضي أبيض وكذلك بالطبع كان صاحب المتجر القريب.

وكان البيض يبدون له في عظمة الآلهة وكان يعلم أنه يجب إبداء الخوف والاحترام إزاءهم. ومن القرية إلى المدرسة.. وفي أول يوم لي في المدرسة أعطت المدرسة كل واحد اسما إنجليزيا.. وعن هذه التجربة يقول: الأفارقة من جيلي وحتى في يومنا هذا يحملون اسما إنجليزيا وآخر أفريقيا فلم يكن البيض يريدون أو يستطيعون نطق الأسماء الأفريقية وكانوا يعتبرونه تخلفا أن تحمل اسما وطنيا وقالت لى المدرسة في ذلك اليوم إن اسمي الجديد هو نيلسون. وبعد وفاة والده متأثرا بمرض رئوي اضطر مانديلا إلى العيش في قصر الحاكم.. وكان أحب الواجبات إليه هي كي ملابس الحاكم فقد كان يقضي الساعات الطويلة في ذلك.

اتحاد الطلبة

تدرج مانديلا في التعليم بالمدارس الإرسالية المتاحة لتعليم الأفارقة في ذلك الوقت.. ومعها وفيها تعلم أصول الحياة الاجتماعية والعقلية بمستوى من الرفعة غريب وجديد عليه.

عن هذه التجارب الحياتية يقول : هناك ولأول مرة ارتديت البيجاما واستعملت فرشاة الأسنان والمعجون بدلاً من استعمال الرماد والخلال.. كما كنا نفعل في قريتنا. وكانت المراحيض ذات الصرف الصحي والحمامات ذات الأدشاش الساخنة أشياء جديدة بالنسبة لي.

وفي أثناء السنة تم ترشيح مانديلا في انتخابات مجلس الطلبة وبدأ التصويت الرسمي للانتخابات وقاطعها معظم الطلبة عدا خمسة وعشرين طالبًا انتخبوا الستة المرشحين الذين قرروا تقديم استقالاتهم وكان هو من بينهم . وفي اليوم التالي استدعاه المدير وناقشه في الموضوع وأصر مانديلا على الاستقالة نزولاً عن رغبة زملائه فقال المدير : إذا أصررت على استقالتك فستفصل من الجامعة.

الزواج وحرية القرار

بنفس المنطق الاستقلالي رفض الشاب مانديلا العروس التي اختارها له الحاكم.. وقرر الهرب إلى جوهانسبرج.. ويقول مانديلا عن هذه التجربة : في ذلك الوقت كان حسي الاجتماعي أكثر نموًا من حسي السياسي فبينما لم أكن مستعدًا أن أحارب النظام السياسي للرجل الأبيض كنت على استعداد للثورة ضد النظام الاجتماعي لقومي ورفضت أن يختار أحد لي عروسًا ولو كان الحاكم نفسه.

وفي جوهانسبرج عمل حارسًا ليليًا لأحد المناجم ثم عمل بمكاتب عدة للمحاماة.. ثم انتقل إلى منطقة الكسندرا الفقيرة القذرة.. وحياتها المثيرة المحفوفة بالمخاطر.

يقول مانديلا : في عامي الأول هناك خبرت الفقر كما لم أخبره طوال إقامتي في قونو. فقد كنت أتقاضى جنيهين في الأسبوع على أن أدفع منها ثلاثة عشر شلنا أجرة سكني وكانت حافلة نقل الوطنيين وهي أرخص وسائل المواصلات تكلفني جنيها وعشرة بنسات في الشهر كما كنت أدفع مصاريف جامعة جنوب أفريقيا وأنفق حوالي جنيهًا على الطعام علاوة على ثمن الشموع للاستذكار.

وكنت فى أيام كثيرة أضطر إلى السير ستة أميال في الذهاب للعمل والعودة وكانت تمر أيام لا أتناول فيها ما يقيم أودي ولا أغير ملابسي. وكان سيدلسكي قد أعطاني إحدى حلله القديمة التي ظللت أرتديها خمس سنوات حتى أصبح فيها من الرقع أكثر ما بها من قماشها الأصلي.وفي نهاية عام 1942 حصل على درجة الليسانس.

طريق الحرية

عن هذا الدرب الطويل يقول مانديلا : لا أستطيع تحديد اللحظة التي انخرطت فيها في العمل السياسي والتي عرفت بعدها أنني سأمضي حياتي في الكفاح من أجل الحرية. ولأن تكون أفريقيًا في جنوب أفريقيا يعني أنك تُسيسُ منذ الميلاد.

فالطفل الأفريقي يولد في مستشفى للأفارقة فقط ويستقل حافلة الأفارقة ويعيش في مناطق الأفارقة ويلتحق بمدارس الأفارقة.. هذا إذا التحق بمدارس أصلاً. وحينما يكبر يقوم بالأعمال التي يقوم بها الأفارقة فقط ويركب قطارات الأفارقة ويؤمر في أي وقت من الليل والنهار ليبرز تصريحه وإذا لم يفعل يلقى به في السجن. وتحد حياته القوانين واللوائح العنصرية التي تعوق نموه وتضيع إمكاناته وتشل حياته.

في بداية الأربعينيات قررت مع آخرين تأسيس تنظيم الشباب.. كانت صيحة الحرب لدينا هي القومية الأفريقية وكانت عقيدتنا هي إيجاد أمة واحدة من القبائل العديدة وإسقاط سيادة البيض وإنشاء حكومة ديمقراطية. وكنا على حذر شديد من الشيوعية وقد مضى إعلاننا على أنه يجوز لنا أن نستعير من الأيديولوجيات الأجنبية ولكننا نرفض استيراد أيديولوجيات أجنبية بالجملة في أفريقيا .

زواجه الأول

التقى مانديلا بإيفيلين ميس زوجته الأولى.. فتاة هادئة جميلة يتيمة من الريف وكانت حينئذ تتدرب لتصبح ممرضة في مستشفى جوهانسبرج العام لغير الأوروبيين. وحدثت بينهما علاقة حب أعقبها زواج مدني حيث لم يكن باستطاعتهما تحمل تكاليف زواج تقليدي.

كانت افتراضية الأبارتيد تقوم على فكرة سمو الجنس الأبيض على الأفارقة والملونين والهنود. وكانت وظيفته تنحصر في ترسيخ السيادة البيضاء إلى الأبد أو كما صاغ ذلك القوميون : إن الرجل الأبيض يجب أن يظل سيدا بكل ما يحمله لفظ السيادة من معاني العنف.

وكانت الكنيسة الإصلاحية الهولندية تؤازر تلك السياسة وقد أمدتها بالأساس العقائدي القائم على الأسطورة التي مفادها أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار وأن السود نوع تابع. وكان انتصار القوميين نهاية لسيادة الإنجليز على الأفريكان. حيث كانت شعارات القوميين وهي أن «شعبنا ولغتنا وأرضنا» تلخص مهمتهم ورسالتهم.

قوانين التمييز العنصري

وكما قلنا من قبل في عام 1950 أصدرت الحكومة قرارين يعتبران حجر الزاوية في التمييز العنصري ترسيخًا لمفهوم «الأبارتيد».. وهما قانون السكان والتسجيل وقانون المناطق الجماعية أو مناطق المجموعات وقد سمح القانون الأول بتصنيف السكان على أساس عرقي وبطريقة عشوائية.. مما نتج عنه أحيانًا التفريق بين أعضاء الأسرة الواحدة اعتمادا على لون البشرة وتجاعيد الشعر.. وسمك الشفتين.

أما قانون المناطق فيعتبر أساس الأبارتيد السكاني وبناء عليه فإذا أراد البيض تملك الأراضي أو المساكن التي يمتلكها الأفارقة أو الهنود.. فما عليهم إلا أن يعلنوا المنطقة بيضاء.

كما أنه بناء على ذلك القانون بدأت حركة نقل جماعية للسكان بالقوة في حالة قرب المناطق التي يعيش فيها الأفارقة من مناطق سكان البيض. من هنا اندلعت شرارة حملة واسعة للعصيان المدني. وفي 3 يوليو عام 1952م.. ألقي القبض على مانديلا.. بتهمة انتهاك قرار حظر الشيوعية. وعن هذه الواقعة يقول مانديلا: حررتني الحملة من عقد النقص والدونية ومن الشعور بالقهر ومن مناعة الرجل الأبيض ومؤسساته. وبلغت سن الرشد كمقاتل من أجل الحرية.

في ذلك الوقت كانت حياة مانديلا خلال حملة التحدي تسير في اتجاهين: عمله النضالي.. وعمله كمحام بعدة مكاتب ثم فتح لنفسه مكتبًا مشتركًا للمحاماة حمل اسم (مانديلا وتامبو) وقد كان الأفارقة في أمسّ الحاجة للمساعدة القانونية فقد كانت كل ممارساتهم تعد جرائم في نظر البيض .

يقول مانديلا: كنا نستمع يوميا ونقابل آلافا من الإهانات التي يلقاها الأفارقة فى حياتهم. ومنها خطط إخلاء المناطق التي يسكنون بها والتي أكدت لي ضرورة المقاومة ولكن الدرس الذي استنتجته أنا.. هو أن خيارنا الوحيد كان هو الكفاح المسلح.

تعليم عنصري

في عام 1953 أقر البرلمان قانون تعليم البانتو الذي قصد بمقتضاه أن يضاف طابع التمييز العنصري إلى التعليم.. وقد شرح د. هنريك فيرويرد.. وزير تعليم البانتو.. السياسة الجديدة قائلاً: إن التعليم يجب أن يعلم الناس ما يناسب فرصهم في الحياة.. أي أن الأفارقة باختصار يجب أن يتدربوا على الأعمال الوضيعة لكي تستمر سيادة الرجل الأبيض.

ثار مانديلا ضد القانون الجديد وضد وزير التعليم.. وطاردت عواقب القانون الحكومة بطرق لم تتوقعها فقد كان تعليم البانتو هو المسؤول في السبعينيات عن تخريج جيل من الشباب الأسود الأكثر غضبًا وثورة.

شارك المناضل الأفريقي الكبير في وضع ميثاق ودستور للحرية لجنوب أفريقيا.. وعرض الميثاق على مجلس الشعب فرفضه.. ورغم الرفض فإن الميثاق ذاته أصبح علامة مضيئة لمعركة التحرير في أفريقيا كلها .

وفي مارس عام 1956 صدر قرار الحظر للمرة الثالثة ضد مانديلا وحددت إقامته في جوهانسبرج لمدة خمس سنوات ومنع من حضور أي اجتماعات. لكن هذه المرة تغير موقفه من الحظر وقرر ألا يسمح لعدوه أن يقرر مدى نشاطاته السياسية وصلته بالمعركة.. فقرر أيضاً ألا ينصب نفسه سجانًا على نفسه.. لتمضي رحلة المكافح على طريق الحرية

يقول مانديلا عن هذه الأحداث :

«لم أكن وقتها أدري بتلك الأحداث.. ولكني تأثرت بها لقد فقد والدي.. الذى كان من النبلاء بمقاييس ذلك الزمن.. ثروته ولقبه.. وقد حرم من معظم قطعانه وأرضه ومن ريعها.. ونتيجة لعسر ظروفنا فقد رحلت أمي إلى قونو.. وقضيت أيام صباي فيها ومن هناك يمكنني استعادة أولى ذكرياتي.

وبعد وفاة والده عاش مانديلا في كنف الوصي على عرش شعب التامبو الذي كان مسيحياً ممارساً وقائداً بارعاً لطالما ذكر مانديلا نصيحته بأن القائد يجب أن يكون كالراعي يقود قطيعه من الخلف بالإقناع الماهر. وكان المجتمع القبلي الأفريقي في نظر مانديلا يحمل مسحة إنسانية وديموقراطية.. وتناول هذا الأمر في خطاب ألقاه عام 1962 قبل دخوله السجن يقول فيه:

«كان المجلس القبلي ديموقراطياً إلى درجة أن جميع أعضاء القبيلة كان في إمكانهم المشاركة في نقاشاته: الزعيم والتابع.. المقاتل والطبيب.. كلهم يشارك ويسعى إلى التأثير في قراراته. كان هيئة ذات وزن ونفوذ.. لا يمكن اتخاذ أي خطوة مهمة في القبيلة من دون الرجوع إليه». كان مانديلا وزملاؤه من تلاميذ المدارس التبشيرية يعتنقون الأفكار الغربية في الوقت الذي يتطلعون إلى استعادة حقوق شعبهم وكرامته.. وفي تنقل مانديلا بين أفكار الليبرالية البريطانية والمسؤوليات التي تحمل تبعاتها في وقت مبكر حول الوصي.. كان يختط بذلك لنفسه ملامح قائد ستتبلور في وقت لاحق.

ونعود ثانيةً لنستمع إلى مانديلا وهو يتحدث عن طفولته فيقول:

لم ينعم على والدي يوم مولدي إلا باسمي : رولي هلاهلا.. ولكنني ورثت عنه قواما بدنيا صلبا ونسبا متصلا بعائلة تمبو الملكية.. ولدت في الثامن عشر من شهر يوليو عام 1918 في قرية صغيرة تسمى مفتزو على ضفة نهر أمباشي بمقاطعة أومتاتا عاصمة إقليم ترانسكي وكانت تلك السنة نهاية الحرب العالمية الأولى .

كان والدي عادلا هنري مفاكانيسوا سيدًا بحكم السلالة والعرف معا.. وقد نصب زعيمًا لقرية مفيتزو على يد ملك التمبو.. كان والدي فارع الطول أسود البشرة.. ذا قوام منتصب مهيب.. وهي صفات أرجو أن أكون ورثتها عنه...كان رجلا صارمًا لا يتردد في استعمال العصا لتأديب أبنائه.. وكان عنيدًا للغاية.. وهذه صفة أخرى أخشى أن يكون الابن قد ورثها عن أبيه... كان والدي وغيره من أعيان القبيلة الأميين يحترمون التعليم احترامًا جمًا.. وهو شأن كثير ممن حرموا التعليم في المدارس...كان يجنح إلى التمرد والاعتزاز بالنفس وكان متشددا في فهمه للعدل والظلم.. وهو ما ألمسه أنا في شخصيتي ..

كنت منذ حداثة سني أقضي أغلب أوقات فراغي في اللعب والمشاكسة في المروج والحقول.. وإلى تلك الأيام يعود شغفي بالمروج والهواء الطلق والفضاء الرحب وبجمال الطبيعة البسيط وبمنظر الأفق يبدو واضحا ناصعا في السماء.. كنا نحن الصبية في غالب الأحيان نترك للتصرف على سجيتنا بلا حدود أو قيود وكانت الطبيعة هي مسرحنا الفسيح.

أدركت أن إهانة الآخرين معاناة لا داعي لها.. وتعلمت منذ صغري أن أنتصر على خصومي ولكن دون الإساءة إلى كرامتهم...تعرفت في صباي على عدد من البيض في قونو.. فقد كان الحاكم المحلي بطبيعة الحال من البيض وكذلك صاحب أقرب محل للبقالة.. وكان الرحالة البيض ورجال الشرطة يمرون بقريتنا... وكان هؤلاء البيض يظهرون لي وكأنهم آلهة.. كما كنت أدرك جيدًا أنه ينبغي معاملتهم بكثير من الخشية والاحترام.

رغم محاولات تنصير والدي إلا أنه تمسك بإيمانه بقاماطا معبود أسلافه وروح الكوسا العظمى.. وكان والدي كاهنا غير رسمي وكان يشرف على مراسم ذبح الماعز والعجول ويترأس الطقوس التقليدية الخاصة بمواسم الزرع وجني الثمار والولادة والزواج والتعميد والدفن.. لم تكن هناك حاجه لترسيمه كاهنًا لأن دين الكوسا يتميز بالشمولية ولا يفرق بين الدين والحياة أو بين الطبيعة وما وراء الطبيعة.

في أول يوم دراسي أعطت المدرسة الآنسة إمدينغاني كل تلميذ منا اسما إنجليزيا قائلة إنه الاسم الذي ستعرف به في المدرسة منذ ذلك التاريخ.. كانت تلك عادة عند الأفريقيين آنذاك... كان التعليم الذي تلقيته تعليما بريطانيا يعطي الأفكار والثقافة والمؤسسات البريطانية مكانة أعلى من غيره فلا وجود في نظرهم لشيء اسمه ثقافة أفريقية أخبرتني الآنسة بأن اسمي نيلسون.. ولم أدرك سر إنعامها على بهذا الاسم بالذات.. ولعله كان لاختيارها ذاك علاقة بالقائد البحري البريطاني المشهور لورد نيلسون.

كنت في التاسعة من العمر – حين توفي والدي – كنت أرى أن شخصيتي تتحدد من خلال شخصية أبي.. ولذا فإن رحيله غير كل حياتي بطريقة لم تخطر على بالي آنذاك.

السلطان يونجينتابا هو الرجل الذي تولى رعايتي وولاية أمري طول العقد التالي من حياتي.. في تلك اللحظات التي شاهدت فيها يونجينتابا وحاشيته أحسست وكأنني شجيرة اجتثت من الأرض ورمي بها في وسط نهر ليس بوسعها مقاومة تياره الجارف لقد التزمت طوال حياتي بتلك المبادئ التي كان السلطان يتبعها في مجالس « المكان العظيم».. فأحرص دائماً على الاستماع إلى ما يقوله كل من يشارك في نقاش أو اجتماع قبل أن أجازف بالتعبير عن رأيي الخاص الذي لا يعدو في الغالب أن يكون تلخيصا لرأي مشترك من بين ما سمعته من آراء وأفكار.. ولا زلت أذكر الحكمة التي كان يرددها السلطان من أن القائد كالراعي يسير وراء القطيع فيدع أكثرها رشاقة يتقدم وبقية القطيع تتبع دون أن تدرك أنها توجه من الخلف.

ثم خطوتُ تلك الخطوة الهامة في حياة كل رجل من أبناء الكوسا.. وأصبح بإمكاني أن أتزوج وأن أملك بيتًا خاصًا بي وأن أحرث أرضي الخاصة.. وأصبح من حقي حضور مجالس القبيلة.. وأن يؤخذ كلامي مأخذ الجد.

(عند انتهاء مراسيم الختان وفي حفل خاص) كان المتحدث الرئيسي- هو (الزعيم مليجقيلي) الذي أحال فجأه أحلامي الجميلة إلى ظلام دامس.. التفت نحونا.. وتغيرت لهجة حديثه بصورة مفاجئة واستطرد يقول :

انظروا إلى أبنائنا الجالسين أمامنا.. إنهم شباب تبدو على وجوههم كل علامات الصحة والوسامة.. إنهم زهرة قبيلة الكوسا.. ومحط فخر شعبنا العريق.. لقد خُتنوا بالأمس في تقليد يحمل إليهم وعدًا بأنهم أصبحوا رجالا.. ولكنني أقف أمامكم اليوم لأقول إنه وعد كاذب خادع لا يمكن أن يتحقق لأننا – نحن الكوسا وجميع الشعوب السوداء في جنوب أفريقيا – شعوب مهزومة.. إننا عبيد في وطننا.. نقيم على ترابه ولا نملكه.. لا قوة لنا ولا سلطانا في أرض ولدنا عليها.. ولا نتحكم في مصيرنا بقليل أو كثير.. إن قدرات هؤلاء الشبان وملكاتهم وتطلعاتهم ستهدر جريًا وراء لقمة العيش وهم يؤدون أبسط الأعمال وأحقرها في خدمة الرجل الأبيض.. إن الهدايا التي قدمناها لهم اليوم لا تساوي شيئا لأننا عاجزون على أن نقدم لهم ما هو أهم.

لم يكن نصيبي خلافا مثل غالبية الشبان الذين شاركوني مراسم الختان أن أعمل في مناجم الذهب الواقعة في السلسلة الصخرية المتاخمة للمحيط.. ولطالما أخبرني السلطان بأنه ليس من صلاح شأني أن أقضي حياتي في استخراج الذهب للرجل الأبيض ولا أتعلم حتى كتابة اسمي.

أقام لي السلطان حفلا بمناسبة اجتيازي المستوى الخامس في المدرسة وقبولي في معهد كلاركبيري.. ذبحت فيه شاة وحفل بالطرب والرقص.. وكان ذلك أول احتفال يقام على شرفي.. أهدى لي السلطان أول حذاء لبسته في حياتي.. وكان ذلك أيضاً من علامات الرجولة.. فأقمت الليل كله أنظفه وألمعه رغم أنه لم يكن بحاجة إلى تلميع أو تنظيف .

لم تحرك كلمات مليجقيلي مشاعري.. ولكنها أجاشت الغضب في نفسي.. واعتبرتها كلمات نابية من رجل أحمق لا يقدر قيمة التعليم والمنافع والميزات التي وفرها الرجل الأبيض.. لقد عكر هذا الزعيم النزق صفو يومي ذاك وأفسد بكلماته الحمقاء ما كنت فيه من حبور ونشوة واعتزاز بالنفس...لكن – دون أن أدرك الأسباب – ما لبثت كلمات الزعيم أن أخذت تفعل فعلها في نفسي.. لقد بذر الزعيم في شعوري بذرة لن تجد سبيلها إلى النمو ولم تؤت ثمارها في حياتي إلا بعد فترة طويلة من الزمن.. وفطنت فيما بعد إلى أنني كنت أنا الجاهل ذلك اليوم وليس الزعيم مليجقيلي.

لقد حزنت بشدة على طفولتي التي ولت.. وما عدت بذاكرتي إلى ذلك اليوم المشهود (يوم الختان) إلا وتبين لي أن رجولتي لم تكتمل حقا إلا بعد سنوات طويلة من ذلك التاريخ.

وجدت أنني أرتاح كثيرًا لصحبة النساء فأبوح لهن بكل ما في نفسي.. وأتحرر في صحبتهن من عقدي ومخاوفي بطريقة لا أجدها في علاقتي مع الرجال.

بعد بداية بطيئة وعادية جدا أخذت أتمرس في العمل والدراسة وأتقدم في برامجي الدراسية.. وأنهيت المرحلة الإعدادية في سنتين بدلاً من ثلاث سنوات.. اشتهرت في المعهد بقوة ذاكرتي .. ولكنني كنت في حقيقة الأمر مثابرًا على الدارسة.

التحقت عام 1937 وأنا في التاسعة عشرة من عمري.. بكلية هيلد تاون المثودية بمدينة فورت بوفورت.. كانت الكلية أفخم من معهد كلاركبيري...وكانت آنذاك أكبر كلية أفريقية جنوب خط الاستواء ضمت أكثر من ألف طالب من الجنسين..كان مدير الكلية رجلا بدينا منغلق الفكر يدعى الدكتور آرثر ويللينغتون...كان من عادته أن يفتتح طابور الصباح بقوله: أنا حفيد الأرستقراطي ورجل الدولة الجنرال دوق ويللينغتون العظيم الذي دحر الفرنسي- نابليون في معركة ووترلو .. وأنقذ الحضارة من أجل أوروبا ومن أجلكم أيها المواطنون الأصليون.. وكنا نرد على ذلك بالتصفيق الحاد تعبيرا عن شكرنا وامتناننا الجزيل لحفيد الدوق العظيم على تفضله بتعليم بشر من أمثالنا نحن السكان المحليين.

لقد كان الرجل الإنجليزي المتعلم مثلنا الأعلى وما كان أحدنا ليطمح إلى أن يصبح أكثر من «جنتلمان أسود» كما كنا أحيانا نصف أنفسنا بشيء من السخرية.. لقد عُلمنا واعتقدنا فعلاً أن أفضل الأفكار هي الأفكار الإنجليزية وأفضل الحكومات هي الحكومة الإنجليزية وأفضل الرجال هم الرجال الإنجليز.

عند اقتراب السنة الأخيرة من إقامتي في هيلدتاون وقعت حادثة كان لها على وقع الشهاب وهو يخترق السماء إذ أعلن أن شاعر الكوسا العظيم كروني أمقهاي سيزور الكلية.. وأمقهاي في الحقيقة من شعراء المديح وهم أشبه بالمؤرخين الذين يسجلون أحداث الماضي والحاضر بشعر مرتجل ذي معان قومية خاصة.

وفي لقاءنا معه وقف بيننا ليقول : إن ما أتحدث عنه ليس مجرد احتكاك قطعة من العظام بقطعة من المعدن.. ولا هو مجرد تداخل الثقافات بعضها مع بعض.. وإنما أحدثكم عن الصدام الشرس بين ما هو فطري وجميل وما هو أجنبي وقبيح.. يجب ألا نسمح للأجانب الذين لا يحترمون ثقافتنا بأن يسيطروا على أمتنا.. وها أنا أؤكد لكم أن قوى المجتمع الأفريقي ستنتصر يومًا ما انتصارًا هائلا على الدخلاء.. لقد استسلمنا طويلا لآلهة الرجل الأبيض المزيفة.. ولكننا سننهض وسننفض عنا تلك الأفكار الدخيلة .

لم أصدق ما سمعت.. لقد أدهشتنا جرأة ذلك الشاعر في التعرض لمثل تلك القضايا الحساسة في حضور الدكتور ويللينغتون وغيره من الشخصيات من البيض... وأدركت أنه بإمكان الرجل الأفريقي أن يتصدى للرجل الأبيض.. ولكنني لم أتوقف عن طلب المنفعة لدى البيض .. وهو ما يستدعي في غالب الأحيان التذلل إليهم.

في ذلك الوقت كان السلطان حريصا كل الحرص على أن ألتحق بجامعة فورت هير وكنت بدوري مبتهجا لقبولي فيها.. وقبل أن ألتحق بالجامعة اشترى لي السلطان أول بدلة أقتنيها في حياتي.. وكانت مزدوجة الصدر رمادية اللون أحسست عند ارتدائها بأنني بلغت سن رشدي وأصبحت رجلاً متحضرًا.. كان عمري آنذاك إحدى وعشرين سنة ولم أكن أتخيل أنه يوجد في فورت هير من هو أحسن مني مظهرا أو أكثر أناقة..كانت جامعة فورت هير كلية تبشيرية.. فكنا نحض على طاعة الله واحترام السلطات السياسية واعتراف بفضل الكنيسة والحكومة بما وفرتا لنا من فرص لتحصيل العلم.. تعرضت هذه الكليات لكثير من النقد لكونها استعمارية في مواقفها وممارساتها.. ولكنني رغم ذلك أعتقد أن ميزاتها ومنافعها تزيد كثيرا عن مساوئها.. كان جو المعاهد التبشيرية رغم التزمت والتشدد الأخلاقي أكثر انفتاحاً من أجواء المدارس الحكومية القائمة على العنصرية.

أتيحت لي (في جامعة فورت هير) فرصة للمشاركة في النشاطات الرياضية.. شاركت في مسابقات كرة القدم .. وعدو المسافات الطويلة الذي تعلمت منه دروسا قيمة جداً.. المثابرة والانضباط... لقد قابلت شباباً كثيرين.. ممن لهم استعدادات فطرية هائلة لكن ينقصهم الانضباط والصبر كي تنمو تلك القدرات.. وشاركت في مسرحية عن إبراهام لنكولن وكان محور موضوع القصة.. أن من أقدم على أعمال عظيمة لقي عواقب هائلة كذلك.

كنا (في السكن الجامعي في فورت هير) حين قال زميل قديم يدعى نياتي خون جيستا: قد يحلو لنا أن نعتبر أنفسنا «سوداً إنجليز» ولكن بينما كان الإنجليز يعملون على «تحضرـنا» كانوا يوقعون بنا الظلم.. ومهما بلغت درجة العداء بين البوير والبريطانيين فإن البيض بإمكانهم الاتحاد من أجل مواجهة الخطر الأسود.... وهمس أحد الطلاب في أذني قائلا إن خون جيستا عضو في المؤتمر الوطني الأفريقي وهو منظمة سمعت بها ولا أعرف عنها إلا القليل.. وبدأت أفطن إلى أن الرجل الأسود ليس محكومًا عليه بقبول الإهانات المتكررة التي توجه إليه كل يوم.

ويمكننا أن نلخص مشوار مانديلا التعليمي في كونه عاش فترة دراسية مضطربة.. حيث تنقل بين العديد من الجامعات.. وبدأت هذه المرحلة المضطربة من حياته في سن الرابعة عشرـة.. عندما توجّه إلى معهد كلاركبيري.. للتحصيل العلمي.. وأنهى المرحلة الأولى من الدراسة في سنتين فقط بدلاً من الثلاث سنوات الاعتيادية في هذه المرحلة.. وفي التاسعة عشرة من عمره.. توجّه إلى كلّية وسيليان.. حيث طرد من الجامعة إثر احتجاجات طلابية على سياسات الجامعة.. حيث تابع دراسته بالمراسلة مع جامعة جنوب أفريقيا.. وبعدها حصل على درجة البكالوريوس في القانون من جامعة ويتس.

ثم بدأ الإعداد لنيل البكالوريوس من جامعة فورت هير.. ولكنه فصل من الجامعة مع رفيقه «أوليفر تامبو » عام 1940 بتهمة الاشتراك في إضراب طلابي.

وكما قلنا سابقًا ففي أثناء السنة تم ترشيح مانديلا في انتخابات مجلس الطلبة وبدأ التصويت الرسمي للانتخابات وقاطعها معظم الطلبة عدا خمسة وعشرين طالبًا انتخبوا الستة المرشحين الذين قرروا تقديم استقالاتهم وكان هو من بينهم.. وفي اليوم التالي استدعاه المدير وناقشه في الموضوع وأصر مانديلا على الاستقالة نزولاً عن رغبة زملائه ، فقال المدير : إذا أصررت على استقالتك فستفصل من الجامعة.

ولقد تابع مانديلا الدراسة بالمراسلة من مدينة جوهانسبرج.. وحصل على الإجازة ثم التحق بجامعة « ويتواتر ساند » لدراسة الحقوق.

وحين أنهى دراساته العليا في «جامعة جنوب أفريقيا الأهلية» الخاصة بالسود كان ملماً باللغة الإنجليزية والحقوق والإدارة المحلية والعلوم السياسية.. وأعطته الحياة الجامعية تجربة قيادية من خلال النشاط الطلابي ذي البعد السياسي.. لينتقل بعدها إلى جوهانسبرج المدينة الرئيسية في البلاد.. وكان طموحه العمل في المحاماة لكنه بدأ العمل كاتباً لدى محام يهودي اسمه سايدلسكي ووصفه بأنه «أول رجل أبيض عاملني معاملة البشر وهو الذي دربني كي أخدم بلدي» ثم تشارك كما قلنا مع محام أبيض اسمه نات بريجمان في مكتب واحد.. وانطلق يعمل وينشط في السياسة التي حملته مسؤوليات كثيرة وأودت به في أحيان كثيرة إلى عيش الفقراء.. لكنه تابع دراسته ليحصل على إجازة في الحقوق ليحق له العمل كمحام وليس مساعدة محامين.. فانتسب إلى جامعة تسمح بوجود عدد محدود من الطلاب السود.. وحين تخرج انغمس في حياة مدنية تستهويه السياسة وحب النساء.

ثم جاءت مشاركة مانديلا في حملة ناجحة لمقاطعات الباصات بعد رفع ثمن تذاكر الركوب.. ليتعرف ومن ثم ينضم إلى المؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان تأسس عام 1912 .. كان المؤتمر إطار نشاطه السياسي والاجتماعي.. لكنه تعرّف عن كثب بواسطة أصدقاء على الحزب الشيوعي الذي كان يضم أعضاء من جميع الأعراق.

وأتيحت لمانديلا معرفة واسعة بأفريقيا عندما كلّفه المؤتمر الوطني الأفريقي الحصول على مساعدة من بقية القارة في شكل مالي وتدريب عسكري.. ومعظم الدول التي زارها كانت مستقلة حديثاً عدا أثيوبيا.. ولاحظ مانديلا توتر العلاقة بين القادة الأفارقة وكذلك عداء معظمهم للعرب.. إذ رفضوا إدخال الشمال أفريقيين في منظمتهم «حركة الحرية الأفريقية في شرق ووسط أفريقيا بـ(Pafmeca).. لكن مانديلا ضغط من أجل إدخالهم وتحسين العلاقة بين مختلف أنحاء القارة السمراء.. وسرعان ما تغير اسم المنظمة ليصبح «منظمة الوحدة الأفريقية» OAU.

وفي بلده عمل مانديلا في الخفاء بسبب حظر المؤتمر الوطني الأفريقي بقرار من الحكومة. أصبحت المقاومة السلمية شيئاً من شعارات البدايات.. ونظّم مانديلا مع رفاقه حملات عنف لتخريب الحركة الاقتصادية في البلاد.. وقد قامت الحكومة باعتقاله وأحيل إلى المحاكمة بتهمة التآمر لإطاحة نظام الحكم.

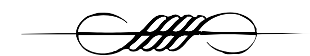
في تلك الفترة لم يكن يحق للسود الانتخاب ولا المشاركة في الحياة السياسية أو إدارة شؤون البلاد.. بل أكثر من ذلك كان يحق لحكومة الأقلية البيضاء أن تجردهم من ممتلكاتهم أو أن تنقلهم من مقاطعة إلى أخرى.. مع كل ما يعني ذلك لشعب معظمه قبلي من انتهاك للمقدسات.. وحرمان من حق العيش على أرض الآباء والأجداد وإلى جانب الأهل وأبناء النسب الواحد.

وكانت الحركة في هذا التوقيت يقودها حزب « المجلس الوطني الأفريقي» المعارض للتمييز العنصري الذي تم تأسيسه تحت اسم «مؤتمر جنوب أفريقيا الوطني » في 8 يناير 1912 م.. وتحديداً في مقاطعة « في بلومفونتين » بجنوب أفريقيا.. تم تأسيس المنظمة.. وكان هدفها الأساسي هو العمل على زيادة حقوق الإنسان للسكان السود في جنوب أفريقيا .. أول رئيس للمنظمة كان يدعى « جون دوب ».. و من بين أعضائها المؤسسين الشاعر والمؤلف سول بلاتجي .

وأصبح لمنظمة المؤتمر الوطني الأفريقي في عام 1923 جناح عسكري تحت شعار (الرمح للأمة) في عام 1961م.

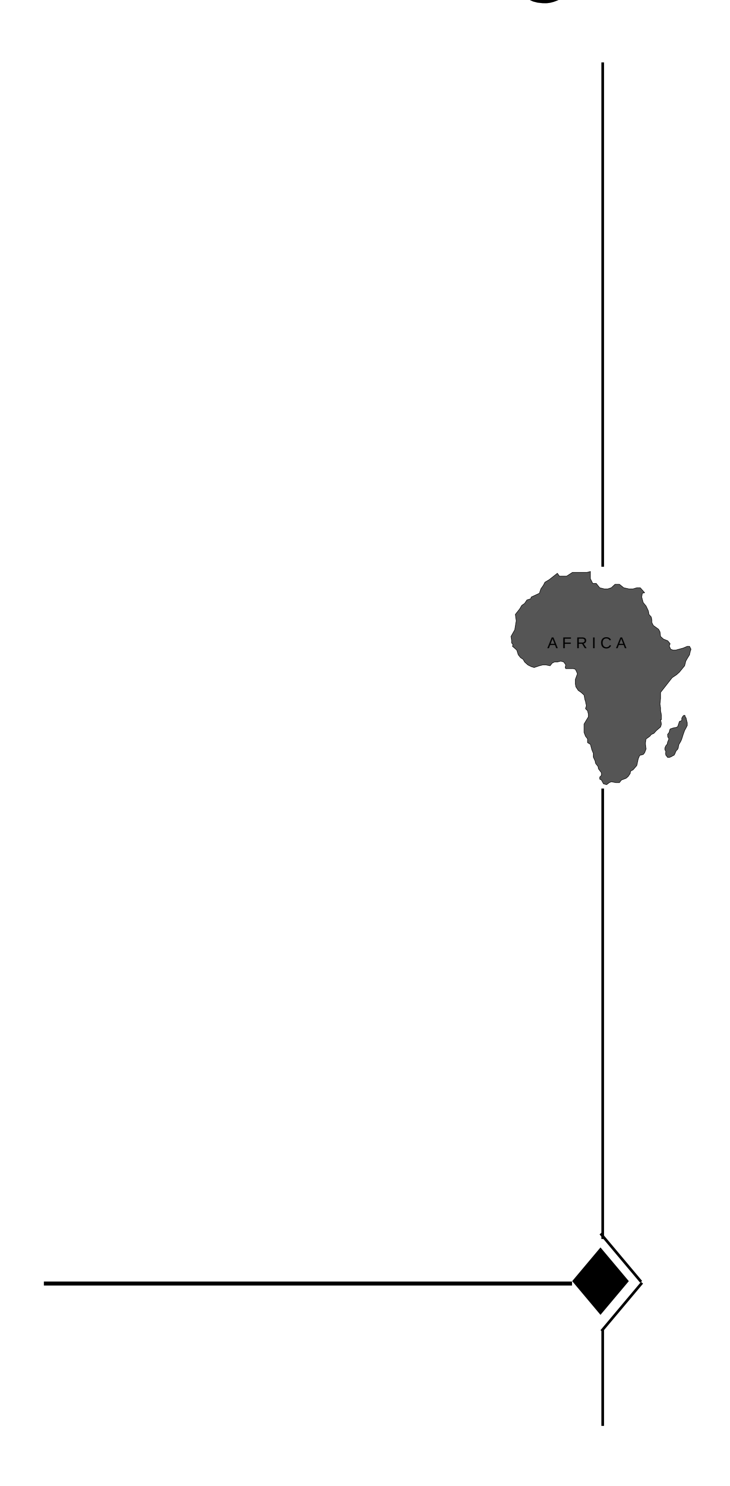
وفي عام 1942 انضم مانديلا إلى المؤتمر الوطني الأفريقي.. الذي كان يدعو للدفاع عن حقوق الأغلبية السوداء في جنوب أفريقيا ..وفي عام 1948 انتصر الحزب القومي في الانتخابات العامة.. وكان لهذا الحزب.. الذي يحكم من قبل البيض في جنوب أفريقيا.. خطط وسياسات عنصرية.. منها سياسات الفصل العنصري.. وإدخال تشريعات عنصرية في مؤسسات الدولة.. وفي تلك الفترة أصبح مانديلا قائدا لحملات المعارضة والمقاومة.. وكان في البداية يدعو للمقاومة الغير مسلحة ضد سياسات التمييز العنصري.

وفي نفس السنة ساعد في إنشاء «اتحاد الشبيبة» التابع للحزب.. وأشرف على إنجاز «خطة التحرك».. وهي بمثابة برنامج عمل لاتحاد الشبيبة.. وقد تبناها الحزب سنة 1949.



الفصل الثالث

مانديلا ... توهج الثورة !!



بدأ مانديلا نشاطه في المعارضة السياسية لنظام الحكم في جنوب أفريقيا الذي كان بيد الأقلية البيضاء.. تقريباً بعد حصوله على شهادة الليسانس مباشرةً عام 1942.

ففي نفس العام انضم مانديلا إلى المجلس الأفريقي القومي.. الذي كان يدعو للدفاع عن حقوق الأغلبية السوداء في جنوب أفريقيا.. وانقسمت من هذا الحين حياة مانديلا بين اتجاهين : عمله النضالي من أجل قومه.. ووطنه.. وعمله الخاص الذي يقتات منه هو وأسرته كمحام.

عن هذا الدرب الطويل يقول مانديلا :

في بداية الأربعينيات قررت مع آخرين تأسيس تنظيم للشباب.. كانت صيحة الحرب لدينا هي القومية الأفريقية.. وكانت عقيدتنا هي إيجاد أمة واحدة من القبائل العديدة وإسقاط سيادة البيض وإنشاء حكومة ديمقراطية.. وكنا على حذر شديد من الشيوعية وقد مضى إعلاننا على أنه يجوز لنا أن نستعير من الأيديولوجيات الأجنبية ولكننا نرفض الخضوع كليًا لها في أفريقيا .

مرحلة المجلس الأفريقي القومي

وفي 1942 انضم مانديلا إلى المجلس الأفريقي القومي.. الذي كان يدعو للدفاع عن حقوق الأغلبية السوداء في جنوب أفريقيا.. وفي عام 1948.. انتصر الحزب القومي في الانتخابات العامة.. وكان لهذا الحزب ..الذي يحكم من قبل البيض في جنوب أفريقيا.. خطط وسياسات عنصرية.. منها سياسات الفصل العنصري.. وإدخال تشريعات عنصرية في مؤسسات الدولة.. وفي تلك الفترة أصبح مانديلا قائدًا لحملات المعارضة والمقاومة.

و كان الحزب في البداية يدعو للمقاومة غير المسلحة ضد سياسات التمييز العنصري.. لكن بعد إطلاق النار على متظاهرين عزل في عام 1960.. وإقرار قوانين تحظر الجماعات المضادة للعنصرية.. قرر مانديلا وزعماء المجلس الأفريقي القومي فتح باب المقاومة المسلحة..

كان زعماء «المؤتمر» في السجن مطاردين أو يعملون ضد الاحتلال سرًا.. وكان بعض المتعلمين الدكاترة والقساوسة والصحفيين من السود أنفسهم للأسف ضد الاستقلال الذي وصفوه بأنه (شريرًا) ووصفوا الحرية بأنها «سرطان».. مع أن البيض«السادة» كانوا لا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم ولا يزاوجونهم.. ولا يستخدمون المواصلات التي يركبونها.. ولا يسمحون لهم بالسكن في مناطقهم.. ويحرمون عليهم حتى بعض أنواع اللباس.. ويمنعونهم حرية التنقل.. وبعض أنواع العمل.. بل لا يرى فيهم البيض بشرًا من الأصل.. ومع هذا فقد كانت طائفة من السود تقدس البيض و تعبدهم وتطيعهم بلا حدود.. كان هؤلاء العملاء من السود بمثابة خونة وجواسيس للحكومة العنصرية.. ورَصاصًا في قلوب شعبهم لصالح الأجانب.. وكان المنتمون لهذه الطائفة يسمونها « الفئة المتعلمة ».. وباختصار كانوا عبيداً للأجانب.. تافهى الشخصية تابعين للبيض.. يحاربون بهم أبناء الشعب الأسود نفسه.. وأصبحت هذه الطبقة كما لو كانت حذاءً تسير عليه الطبقة العنصرية لتحقيق مصالحها وخدمتها.. أو درعاً للبيض.. تقيهم من سهام الأفريقيين السود.

العمال

كان العمال يبدأ عملهم من قبل الفجر إلى الليل في مناجم الذهب.. والمصانع وأعمال البناء.. وتربية الحيوانات والمزارع.. ينتجون الملايين للمستغل الأبيض.. ويَقنعون ببعض جنيهات قليلة في نهاية فترة شهور العمل .. جنيهات لا تسمن.. ولا تغني من جوع.. لا تكاد تكفي طعامهم.. ولا سكنهم غير الإنساني في المساكن التابعة لتلك المصانع والمزارع.. والتي تتجمع داخل أحياء الفقراء.. وهي تقل كثيرًا عن غرف كلاب السادة البيض.

الوسطاء

ويقوم هؤلاء السماسرة «طبقة الوسطاء» بين السود والبيض - بجمع السود في مصانع البيض وترتيب عملهم والإشراف عليهم.. وبذل كل جهدهم للسيد الأبيض.. وهم قيادات سوداء يصنعها البيض.. هم قساوسة وكُتَّاب وموظفون.. ويعطونهم بعض المزايا عن الشعب ويدفعون لهم أكثر ليستمروا في إخضاع جنسهم الأسود للمستعمر الأبيض.. وهذه الطبقة كانت بمثابة رأس الحربة المغروس في قلب الشعب.. وهي بلا شك كانت الأخطر في وجه مانديلا والمؤتمر الأفريقي.. وكانت حاجزًا يحول دون أن يتصل بالشعب ويبلِّغه رسالته ويلهمه حريته وكرامته.. هذه الطبقة من الشعب الأفريقي جمعت اللؤم والدناءة من الشعبين وباعت كرامتها وحريتها للأفريكانو.. في البداية كان ذلك عن جهل وسذاجة وطمع فيما قد يحصلون عليه مقابل ذلك من مميزات مادية.. وما يتوهمونه من حصولهم على مميزات أدبية.. واجتماعية وسط أقرانهم من السود لاتصالهم بالطبقة البيضاء الحاكمة.. حتى وإن كان الثمن المباشر لذلك هو كراهية أبناء جلدتهم لهم.. وكانوا يضحكون على أنفسهم بقولهم لمن يناقشهم في ذلك: «إننا نقوم بما يمليه علينا عملنا.. وواجبنا».. وأحياناً تتمادى بهم أوهامهم فيقولون: «بما تمليه علينا ضمائرنا.. ووطنيتنا».

لكل قاعدة .. استثناء

وعلى عكس تلك النوعية الرخيصة من السود يفاجئنا مانديلا في مذكراته بذكر قصة أحد المحامين البيض يدعى «برام منيشر».. كان ابنا لرئيس وزراء مستعمرة نهر أورانج.. كان يدافع عن مانديلا وأعضاء المؤتمر وكان يؤرقه أن الرجال الذين يدافع عنهم يذهبون إلى السجن.. وبعد محاكمة ريفونيا قرر المحامي الأبيض أن يلتحق بالعمل السري مع السود أنصار مانديلا ضد أعداء الإنسانية البيض «قومه».. ونصحه مانديلا أثناء المحاكمة ألا يفعل ذلك.. لأنه يخدم المعركة أفضل في قاعة المحكمة.. وحتى يرى العالم « أفريكانيًا » وابن رئيس قضاة يدافع عن المظلومين.. ولكن لشهامته لم يكن ليتحمل رؤية نفسه حرًا والأبرياء يعانون.. فقد أحب أن يكون كالقائد الذي يقاتل جنبًا إلى جنب مع جنوده.. ولا يريد أن يطلب من الآخرين أن يقدموا تضحية لايستطيع هو أن يقدمها.. والتحق بالعمل السري ضد البيض.. فُقبض عليه ثم أفرج عنه بكفالة.. وقبض عليه مرة أخرى وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة.. ولما أصابه السرطان في السجن شنت الصحافة حملة للإفراج عنه ومات بعد خروجه واستمرت الحكومة البيضاء في مطاردته.. حتى بعد وفاته وصادرت رماد جثته بعد حرقها ..

ويقول مانديلا بعد هذا : «قدم برام منيشر أكبر التضحيات على الإطلاق.. فمهما كانت معاناتي في بحثي عن الحرية فقد كنت أستمد القوة من كوْني مناضلاً مع رفاقي.. ومن أجل شعبي.. أما « برام » فكان رجلاً حرًا ناضل ضد شعبه.. من أجل أن يضمن الحرية للآخرين ».. إنه رجل شريف يحترم ذوي المواقف ويقدرها.

الحزب.. والإرهاب..

لم يكن موقف مانديلا من حالة اللاعنف يمثل مبدأ أخلاقياً بل استراتيجية فليست هناك طيبة أخلاقية في استعمال سلاح غير فعال .

لهذا لجأ المؤتمر الوطني الأفريقي إلى الإرهاب قبل أن يصل إلى قوته السياسية بما فيه الانفجار عن طريق سيارة مفخخة كالذي حدث عام 1968 وأدى إلى مقتل ثلاث نساء وجرح 69 آخرين في بارين مزدحمين.

انتصار الحزب

وفي عام ١٩٤٨ انتصر الحزب القومي في الانتخابات العامة.. وكان لهذا الحزب المحكوم من قبل البيض في جنوب أفريقيا.. خطط وسياسات عنصرية.. منها سياسات الفصل العنصري.. وفي تلك الفترة.. أصبح مانديلا قائداً لحملات المعارضة والمقاومة.. وكما قلنا فقد كان في البداية يدعو للمقاومة غير المسلّحة ضد سياسات التمييز العنصري.. ولكن بعد إطلاق النار على المتظاهرين.. وإقرار قوانين مشدّدة ضد الجماعات المضادة للعنصرية.. قرّر مانديلا وزعماء المجلس الأفريقي القومي.. فتح باب المقاومة المسلّحة.

مانديلا وغاندي .

فضلاً عن الشيوعيين.. تنبّه مانديلا إلى الأعراق المختلفة في جنوب أفريقيا من غير السود والبيض.. وأبرز هؤلاء ذوو الأصول الآسيوية.. كالهنود الذين صادق منهم الكثير وشارك في نشاطهم الاحتجاجي الذي تميز بالأسلوب السلمي وفق منهج المهاتما غاندي الذي أقام لفترة في جنوب أفريقيا.. وعمل محامياً وقاد احتجاجاً سلمياً لآلاف الهنود بشكل غير قانوني عام 1911 .

واستعاد هنود جنوب أفريقيا عام 1947 تجربة الاحتجاج السلمي ليواجهوا قانون الجيتو الهندي الذي يحظر بيع مزيد من الأراضي للهنود.. كان مانديلا يشاركهم الاحتجاج ويتعلم من تجربتهم ويتخذ من بينهم أصدقاء.. وأحدهم.. ويدعى « أحمد كاثرادا » أمضى مع مانديلا في السجن 25 سنة .

كما وجد مانديلا في تجربة « جواهر لآل نهرو » السياسية معلماً له حين كان يتأرجح بين الشيوعية والقومية.. وهو هنا يصل إلى قومية غير متشنجة وذات بعد إنساني كما في قول نهرو: «إن القومية جيدة في مكانها.. إلا أنّها صديق لا يمكن الاعتماد عليه ومؤرخ غير أمين.. إن القومية تعمينا عن كثير من الأحداث وتشوّه الحقيقة أحياناً.. خصوصاً في ما يتعلق بنا وببلدنا..»

مانديلا .. أم غاندي؟

وفي سياق المقارنة بين الزعيمين الكبيرين مانديلا .. غاندى.. كتب أنتوني سمبسون كاتب سيرة مانديلا مايلي :

«كان مانديلا أكثر برجماتية.. وكان حتماً دون غاندي زهداً.. »

بينما قالت صديقة « مانديلا » التي تدعى فاطمة مير:

قال بعض الهنود : إنه مثل غاندي.. فقلت لهم: غاندي خلع عنه ثيابه.. أما نيلسون فيهوى ثيابه..

أما مانديلا نفسه فقد كان معجباً أشد درجات الإعجاب بـ « غاندي » كواحد من رواد حركة التحرير عبر التاريخ.. وصدم عند اغتياله في الهند في فبراير 1948 .. إلاّ إنه لم يكن يشاطره الرأي حول الجانب النقيّ من الصراع.. وقال مانديلا في بعض تصريحاته فيما بعد:

« لم أكن أعتبر اللا عنف على طريقة غاندي مبدأ ثابتاً.. وإنما هو تكتيك يستخدم بحسب مقتضى الحال ».

بين مانديلا.. وغاندي :

ويحوي التاريخ أيضاً صفحة ناصعة أخرى لموقف سجله مناضل تاريخي آخر هو المهاتما غاندي.. ففي الأول من أغسطس 1916 .. أطلق غاندي دعوته للشعب الهندي بعدم التعاون مع الحكومة.. وبعد اعتقاله قدم للمحاكمة بسبب نشره ثلاثة مقالات هاجم فيها الحكومة وإجراءاتها القمعية ضد النضال الوطني.. وقالت السلطات إن المقالات «تحريضية» وإنها تهدف لـ «إثارة الكراهية ضد الحكومة القائمة».

القانون في مقابل الضمير

السلطات حاكمت غاندي وفقاً لنصوصها القانونية.. ولكن غاندي طرح موقفه على أساس «القانون في مقابل الضمير».. متسائلا عن شرعية القانون إذا كان الالتزام به انتهاكًا للحق والضمير.. ومع أنه «اعترف» بالذنب إلا أنه استطاع أن يحاكم السلطات البريطانية التي اعتقلته.. واصفًا المادة المذكورة بأنها «صيغت من أجل قمع حريات المواطنين» مذكرًا السلطات بأن «الحب للحكومة لا يمكن أن يصنع أو ينظم بالقانون».. وأضاف: «أنا أعتبره أمرًا حسنًا أن أحرض ضد حكومة ارتكبت من الضرر بالهند ما لم يفعله أي نظام آخر».. وأضاف: «إن اللا عنف أول المبادئ التي أعتقد بها.. وآخرها.. وعلي أن أختار.. فإما أن أستسلم لنظام أعتبره مسؤولا عن إلحاق ضرر لا يمكن إصلاحه لبلدي أو أواجه احتمال غضب جنوني من شعبي عندما يسمعون الحقيقة من شفتي».. ثم توجه إلى القاضي قائلا: «إن المجال المتاح لك أيها القاضي.. إما أن تستقيل من منصبك.. وأنا أعلم أن ذلك مستحيل.. وأن تنأى بنفسك عن الشر إذا كنت تشعر أن القانون الذي يطلب منك تطبيقه أمرَ شرٌ وأنني في الواقع بريء.. أو أن تصدر بحقي أشد العقوبة إذا كنت تعتقد أن النظام والقانون اللذين تساعد على تطبيقهما هما لصالح شعب هذا البلد.. وأن نشاطي مضر بالصالح العام».. وبعد أن استمع القاضي لأقوال غاندي أصدر حكمًا قاسيًا بحقه.. بالسجن ستة أعوام.. ثم توجه إليه قائلا: «إنك من المستحيل أن أتجاهل حقيقة أنك في عيون الملايين من شعبك مناضل وطني كبير وقائد عظيم».. ويمكن اعتبار تلك المحكمة بداية النهاية للنظام الذي احتل الهند.. والنضال السلمي الذي قاده غاندي لاحقا.

نقرأ التاريخ لنرى فيه مرآة تعكس تجارب الشعوب والأمم.. حيث تتكرر مشاهد الجلاد والضحية.. وانتصار الضحية على الجلاد في نهاية الصراع.. الضحية لا تموت.. إلا عندما تستسلم.. أما عندما تصر على مواجهة الطاغية.. فإنها منتصرة عليه طال الزمن أم قصر.

التحدي

سنة 1952 بدأ الحزب ما عرف بـ «حملة التحدي» وكان مانديلاً مشرفا مباشراً على هذه الحملة.. فجاب البلاد كلها محرضا الناس على مقاومة قوانين التمييز العنصري.. خطيباً ومنظماً للمظاهرات والاحتجاجات.. فصدر ضده حكم بالسجن مع إيقاف التنفيذ.. واتخذت الحكومة قراراً بمنعه من مغادرة جوهانسبرج لمدة ستة أشهر.. وقد أمضى تلك الفترة في إعداد ما عُرف بـ «الخطة ميم».. وبموجبها تم تحويل فروع الحزب إلى خلايا للمقاومة السرية.. وفي 3 يوليو عام 1952 م.. ألقي القبض على مانديلا.. بتهمة انتهاك قرار حظر الشيوعية.. يقول مانديلا عن هذه التجربة :

« حررتني الحملة من عقد النقص والدونية ومن الشعور بالقهر ومن مناعة الرجل الأبيض ومؤسساته.. وبلغت سن الرشد كمقاتل من أجل الحرية».

اشتغاله بالمحاماة

وفي نفس العام 1952 الذي افتتح مانديلا مع رفيقه أوليفر تامبو أول مكتب محاماة خاص بالسود فقط في جنوب أفريقيا.. صار مانديلا رئيسًا للحزب في منطقة الترانسفال.. ونائب الرئيس العام في جنوب أفريقيا كلها.. وقد زادته ممارسة المحاماة عناداً وتصلباً في مواقفه.. إذ سمحت له بالاطلاع مباشرة على المظالم التي كانت ترتكب ضد أبناء الشعب الضعفاء.. وفي الوقت نفسه على فساد وانحياز السلطات التنفيذية والقضائية.. بشكل كان معه حصول مواطن أسود على حقوقه نوعًا من المستحيل.

الاعتراض على مانديلا

قدمت نقابة المحامين اعتراضاً على السماح لمكتب مانديلا للمحاماة بالعمل.. ولكن المحكمة العليا رفضت ذلك الاعتراض ولم تعترف به.. إلا أن هذا الموقف كان له فيما بعد أثره الخطير في حياة «نيلسون مانديلا» كثائر عنيد.. فلم تعرف حياته بعدها الهدوء.. والاستقرار منذ هذا التوقيت ..

أعقب ما حدث تعرض « مانديلا » لسلسلة من الضغوط الرسمية.. والملاحقات البوليسية اضطر بعدها « مانديلا » إلى الإعلان رسمياً عن تخليه عن كافة مناصبه في الحزب.. ولكن ذلك لم يمنع الحكومة من إدراج اسمه ضمن لائحة المتهمين بالخيانة العظمى في نهاية الخمسينيات.. وقد تولى هو ودوما نوكوي الدفاع وعن باقي المتهمين نجحا في إثبات .

وفي هذا الوقت شارك « مانديلا » في وضع ميثاق ودستور للحرية لجنوب أفريقيا.. وعرض الميثاق على مجلس الشعب فرفضه.. ورغم الرفض فإن الميثاق ذاته أصبح علامة مضيئة لمعركة التحرير في أفريقيا كلها.. وفي مارس عام 1956 صدر قرار الحظر للمرة الثالثة ضد مانديلا وحددت إقامته في جوهانسبرج لمدة خمس سنوات ومنع من حضور أي اجتماعات.. لكن هذه المرة تغير موقفه من الحظر وقرر ألا يسمح لعدوه أن يقرر مدى نشاطاته السياسية وصلته بالمعركة.. فقرر أيضاً ألا ينصب نفسه سجانًا على نفسه.. لتمضي رحلة المكافح على طريق الحرية..

مانديلا يحمل السلاح :

كان لكفاح مانديلا في صدر شبابه وقبل سجنه وجهًا آخر امتزجت فيه الثورية السلمية بالعمل المسلح.. وهذه الفترة من أكثر فترات حياة مانديلا غموضًا حتى أنه في مذكراته الخاصة لم يتحدث عنها كثيرًا.. ولكن هناك تصريح صحفي هام لزعيم عربي صاحب تاريخ ثوري كبير يتعلق بتلك المرحلة من حياة مانديلا نرجع إليه لعله يحيط اللثام قليلاً عن ذلك .. وهو الزعيم الجزائري أحمد بين بيلا الذي قال بالحرف الواحد :

« أنا من قمت بتدريب مانديلا على العمل الثوري المسلح في معسكرات الثورة الجزائرية».

الحوار أجرته صحفية سويسرية شهيرة تدعى «سيلفيا كاتوري» وتحدث فيه الزعيم العربي الأشهر عن « نيلسون مانديلا » بإسهاب.. ويهمنا من الحوار تلك الجزئية التي تحدث فيها الزعيم الجزائري عن مرحلة غامضة من مراحل حياة « مانديلا » وهي الخاصة بتدريبه على العمل العسكري.. لما لها من مدلول هام في تركيبة « مانديلا » الثورية.. ويتضح من خلالها أن الرجل الذي اختار من البداية أن يسير على درب «المهاتما غاندي» كان يدرك تماماً وفي نفس الوقت أهمية العمل العسكري.. واللجوء لخيار المقاومة المسلحة في نضاله الثوري.. وندع ابن بيلا يتحدث هو عن هذا المنحى يقول ابن بيلا :

الحق أنني عشت حياة خاصة بعض الشيء.. فقد ساهمت في تحرير بلادي.. وكنت واحداً من منظمي كفاحها التحريري.. كذلك ساهمت مساهمة فعّالة في كافة أشكال النضال من أجل التحرير.. وحياتي حياة نضال.. ويسعني القول أن ذلك لم يتوقف لحظة واحدة.. إنه كفاح بدأته وأنا في السادسة عشرة.. وقد بلغت التسعين من غير أن يتغير الحافز: الحماس الذي يعتمل في نفسي.. لم يزل كما كان.

تسلمت في 1962 أعلى المناصب في الجزائر المستقلة.. وكانت الآمال كلها مفتوحة على مداها.. لكنك.. من الجزائر المستعمرة حتى تحريرها.. ومن المشهد السياسي الدولي حتى الصراع العالمي الخارجي.. دفعت غاليا جداً ثمن معركتي في سبيل العدالة.. وحرية الشعوب.. لكن هاأنا قد قمت بما شعرت أنه واجب والتزام.. لم يكن الخيار إذن شاقاً جداً علي.. كنت فتياً جداً حين انخرطت في طريق النضال من أجل بلادي.. وتفتّحت آفاقي.. فأدركت سريعاً أن المعضلات تتجاوز الجزائر.. وأن الاستعمار يطال العديد من الشعوب.. وأن ثلاثة أرباع بلدان الكرة الأرضية مستعمر بشكل أو بآخر.. في ذلك الحين.. كانت الجزائر بالنسبة لفرنسا.. مقاطعة من مقاطعاتها التي تقع فيما وراء البحار.. فمن الجهة الأخرى من المتوسط تقع فرنسا.. لقد دام استعمار فرنسا للجزائر طويلاً جداً: دام 132 عاماً.. شاركت في ذلك الكفاح وأنا في الجزائر.. وبعد الاستقلال مباشرة.. وجدتني شريكاً لكافة الذين كانوا يناضلون في العالم من أجل تحرير بلدانهم.. كانت هنالك إذن تلك المرحلة من الكفاح في سبيل التحرير الوطني.. وقد ساهمت فيها مساهمة كلّية.. لقد أضحت الجزائر في تونس وفي المغرب وفيتنام.. الوطن الأم لحروب التحرير إلى حد ما.. كنا نمدّ لهم يد العون.. حتى ونحن لا نملك سوى وسائل محدودة.. نمدّهم بالسلاح.. وبشيء من المال.. ونمدّهم بالرجال عند الضرورة.

باختصار كان هناك العديد من الشعوب الأخرى التي كانت تعتمد على دعمنا لها.. كان كفاحي لتوفير أفضل شروط الحياة للجزائريين.. الذين كانوا يعانون آنذاك من بؤس شديد.. ونضالي لمساعدة الشعوب الأخرى الرازحة تحت نير الاستعمار على نيل حريتها.. سبب إزعاجاً كبيراً لبعض الحكومات.. فقد مضيت بعيداً جداً حسب وجهة نظرهم.. وكان علي أن أتوارى عن الساحة.. وأقصد أنه لو لم يقم الجيش الجزائري بالانقلاب علي.. لقامت بذلك جهات أخرى.. كان علي أن أتوارى لأنني أصبحت أسبب إزعاجاً فائقاً.. لقد كنت من الناحية العملية أؤمّن المأوى لكافة حركات التحرير.. بما فيها الحركات القادمة من أمريكا اللاتينية.

وكان كل ذلك بعد وصولي إلى الحكم بفترة قصيرة.. لقد تعهدت مع حكومتنا على تقديم العون لحركات الكفاح للتحرير الوطني.. ففي ذلك الوقت كانت بلاد كثيرة ما تزال مستعمرة.. أو خرجت لتوها من تحت نير الاستعمار.. فأفريقيا كلها كانت عملياً على تلك الحال.. وقمنا نحن بدعمها.. لقد جاء كل من نيلسون مانديلا وأميلكار كابرال إلى الجزائر أيضا.. وتوليت أنا تدريبهما.. ثم انطلقا ليتولى كل منهما الكفاح من أجل تحرير بلاده أما الحركات الأخرى التي لم تكن تخوض كفاحاً مسلحاً.. أو التي لم تكن بحاجة إلا لدعم سياسي.. مثل مالي.. فقد ساندناها على صعيد آخر .

وفي سبيل ذلك أقمت أيضاً علاقات مع فيديل كاسترو.. وجاء تشي جيفارا إلى الجزائر.. يحمل لي رسالة من كاسترو الذي التقيت به مرّتين لقد طلب إلينا مساندة حركات الكفاح التي تنمو في أمريكا الجنوبية.. لأن كوبا لا تستطيع أن تفعل شيئاً.. فهي خاضعة لمراقبة الولايات المتحدة التي تحتل خليج جوانتانامو.. فلا يمكن أن يخرج شيء من كوبا.. ولو بحجم علبة ثقاب من غير أن تدري به الولايات المتحدة.. فلم أتردد ثانية واحدة.. وهكذا فمن الجزائر.. وبمساهمة من تشي- جيفارا.. الذي مكث عندنا طيلة ستة شهور.. أنشئت هيئة أركان جيش التحرير لأمريكا الجنوبية.. ويسعني الآن أن أقول ذلك: إن كافة المناضلين الذين ساهموا في الكفاح من أجل التحرير في أمريكا الجنوبية جاؤوا إلى الجزائر.. ومنها انطلق كافة الذين انخرطوا في الكفاح.. لقد عملنا على تدريبهم.. وعملنا على أن تصل إليهم الأسلحة.. وقمنا بإنشاء شبكات.

بعد مجزرة شاربفيل التي راح ضحيتها عدد كبير من السود عام 1960 م التي قتل فيها 69 شخصاً عندما فتحت الشرطة النار على متظاهرين من السود.. اضطر المؤتمر الوطني الأفريقي لتغيير استراتيجيته بعد تلك المذبحة الشنيعة.

أصدرت السلطات الحكومية هناك قرارا بحظر كافة نشاطات حزب «المجلس الوطني الأفريقي».

في هذا التوقيت كان «مانديلا» قد أصبح رئيسًا للجناح العسكري للمجلس الأفريقي القومي.. وعند عودته إلى جنوب أفريقيا (1962م) من إحدى رحلاته خارج البلاد.. ألقي القبض عليه بتهمة « السفر غير القانوني ».. وهي تهمة غريبة تماماً عن كل القوانين.. والدساتير التي عرفها الإنسان.. وأضافوا إليها تهمة أخرى حتى يتكامل الشكل القانوني للمحاكمة.. وهى تهمة « التحريض على الإضرابات وأعمال العنف » وذلك عندما دعا لاستخدام سلاح المقاطعة.. وشارك في حملة ناجحة لمقاطعات الحافلات بعد رفع ثمن تذاكر الركوب .

.. واستمرت محاكمته أكثر من أربعة أعوام.. بعد أن اتهم مانديلا مع 156 ناشطا سياسيا بالخيانة العظمى.. وتولى مانديلا الدفاع عن نفسه بنفسه.. أثناء المحاكمة ألقى خطاباً في الدفاع عن نفسه استغرق خمس ساعات.. ختمه بقوله:

«لقد كرّست حياتي لكفاح الشعب الأفريقي.. وحاربت هيمنة البيض بقدر ما حاربت فكرة هيمنة السود.. كنت دائماً أرفع عالياً نموذج المجتمع الديمقراطي الحر.. حيث الجميع يعطون فرصاً متعادلة ومنسجمة.. وإذا اقتضى الأمر سأموت من أجل هذا الهدف ».

ولكن المحكمة أدانته بالتهم الموجهة إليه وحكمت عليه بالسجن مدة 5 سنوات.. ثم أسقطت عنه الحكم في النهاية عام 1965م.

وبعد الإفراج عنه وفي العام نفسه تقرر إنشاء ما عُرف بـ « الجناح العسكري للمجلس الأفريقي القومي».. و أصبح مانديلا رئيساً له.. وقام بأعمال تخريبية ضد مؤسسات حكومية واقتصادية.. ثم قاد المقاومة السرية التي كانت تدعو إلى ضرورة التوافق على ميثاق وطني جديد يعطي السود حقوقهم السياسية.. وزادت مقاومة السود بمرور الوقت.. وأصبحت القوانين التي صدرت لتقييد الأماكن التي يمكن للسود العمل والعيش فيها موضع غضب الأقلية السوداء وأحرقت الكتب بينما كان يعمل مانديلا في الخفاء وينظم المزيد من الإضرابات والمظاهرات.. وتم حظر المؤتمر الوطني الأفريقي واختبأ مانديلا وأصبحت المقاومة السلمية شيئا من الماضي.

السجن مدى الحياة

ثم أعيد تقديمه عام 1964 للمحاكمة مرةً أخرى بتهمة « الخيانة العظمى ».. بعد أن ثبت للسلطات هناك عودته للتآمر ضدهم عقب الإفراج عنه في المرةِ الأولى.. وتنظيمه لما أسموه « حملات تخريب ضد اقتصاد البلاد.. والتآمر للإطاحة بنظام الحكم ».. واعتقل في نهاية الأمر.. وأثناء المحاكمة تولى مانديلا الدفاع عن نفسه مرةً ثانية.. وكرر نفس الكلمات التي قالها من قبل في محاكمته الأولى.. عندما وقف ليقول :

«لقد تمسكت بمبدأ إقامة مجتمع ديمقراطي وحر يعيش فيه الجميع في انسجام وبفرص متساوية.. إنه مبدأ أتمنى أن أعيش من أجل تحقيقه.. وأنا على استعداد للموت من أجله إذا لزم الأمر ذلك..»

كما طالب أيضاً في نفس المرافعة وهو واقف أمام القاضي بعد أن حوّل قاعة المحكمة التي حوكم فيها إلى ميدان معركة للمثُل المنطوقة بشجاعة والمناشدة البليغة للعدل.. بأن يمتد حقّ التصويت إلى سكان جنوب أفريقيا كافة.. وقال معلناً:

«لا أعدّ نفسي ملتزماً.. من الوجهتين القانونية والأخلاقية.. بطاعة القوانين التي يُصدرها مجلس نيابي ليس لي تمثيل فيه..»

وكان الرأي العام العالمي يتابع أخبار محاكمته بشغف.. وترقب.. وأصبحت قضيته قضية كل الأحرار في العالم أجمع ..وفي خلال ذلك انتخب مانديلاً كنوعٍ من التضامن معه.. ومع قضيته.. رئيساً لاتحاد طلاب جامعة لندن.. تلك الجامعة التي كان يحلمٌ في بدايات شبابه بأن ينتسب إليها.. لكنه لم يدخلها أبداً.. وكانت تلك رسالة دعم من بريطانيا نفسها ترافقت مع الدعم الأفريقي والعالمي للثائر الجنوب أفريقي .

لكن كل ذلك لم يمنع المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة.. وتسبب الحكم بردود فعل واسعة.. ورافضة من قبل الرأي العام العالمي.. ورأت أوروبا وأمريكا في مانديلا صديقاً للمستقبل تريد حكومة بريتوريا العنصرية قصف مستقبله.. لكن هذه الحكومة التي اعتقدت أن ذكر مانديلا سيتلاشى بعد سجنه بسنوات قليلة.. فوجئت بأن سجنه المديد يبلور قضية الحرية والعدالة في جنوب أفريقيا .

وأرسل مانديلا بعد الحكم عليه بالسجن مدى الحياة إلى السجن الموجود بجزيرة « روبن »خاضعاً لحراسة مشددة في خليج تيبل قبالة ساحل كيب تاون.

وفي الخارج كان الوقت قد بدأ ينفذ أمام نظام التمييز العنصري.. ومع وجود قيادات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في السجن أو المنفى ساعد الأطفال على استمرار الثورة.

وقتل المئات وأصيب الآلاف قبل سحق انتفاضة المدارس.. لكن المتحررين البيض بدأوا يرون أن مانديلا الحل وليس المشكلة.

الزواج :

بشكلٍ عام لم يترك الكفاح من أجل جنوب أفريقيا لـ « مانديلا » من الوقت إلا القليل للاهتمام بحياته العائلية.. لكنه رغم ذلك تزوج كما قلنا ثلاث مرات..

وساندت إيفيلين الزوجة الأولى زوجها مانديلا لإكمال دراسة القانون من الأجر الذي كانت تحصل عليه من عملها كممرضة.. وأنجب مانديلا وإيفيلين بنتا وولدين وبنتا أخرى توفيت وعمرها أشهر قليلة..

وأحد أسباب انفصال الزوجين تكريس الزعيم الأفريقي نفسه لقضية محاربة نظام الفصل العنصري ..وطلقها عام 1957 بعد 13 سنة من الزواج.. وقد تردد أن سبب طلاقهما يعود إلى النضال السياسي لمانديلا آنذاك الذي كان يتطلب منه غيابا عن البيت لفترات طويلة.. إلى جانب أن مآسي كانت من أتباع مذهب «جيهوفا » أو «شهود يهوا» الذي يتطلب حيادًا دينيًا..

وتوفيت إيفيلين في عن عمر يناهز 82 عاماً بعد إصابتها بمرض في الرئة.

زوجة مع إيقاف التنفيذ :

وبعد عام من طلاقه من زوجته الأولى.. تزوج مانديلا من زوجته الثانية « ويني ماديكيزيلا » صاحبة الشخصية الجذابة التي كانت تعمل في الرعاية الاجتماعية والتي ساندته خلال 27 عاماً من السجن وأصبحت أكثر عضوات حزب المؤتمر الوطني شعبية.. ولكن الزوجين انفصلا بعد عامين من إطلاق سراح مانديلا من السجن عام 1990 .

وعندما نتحدث عن سجن مانديلا.. لابد أن نتوقف عند هـذه المرأة.. فعنـدما بـدأ « مانـديلا » رحلته الطويلة مع السجن .. بدأت هي الأخرى رحلتها مع القدر.. الذي حكم عليها بأن تصبح منذ يوم سجن زوجها.. وطوال 27 عاماً بعـدها زوجـة مـع إيقـاف التنفيـذ.. ولابـد مـن الإشـارة إليهـا.. وإلى دورها في حياة ثائرنا الفذ.. لابد أن نتوقـف كثـيراً لما لهـذه المرأة مـن فضـل كبـير عـلى توصيل رسالة «مانديلا» للرأي العام العالمي.. فهناك نوعية من النساء تمتاز بقدر عالٍ من الجاذبيـة الشخصية أو الذاتيـة.. شخصـيات يشـعر المـرء أمـامهن بـالاحترام الكبـير بـما تفـرض بـه نفسـها عـلى الجميع.. نساء يعشن بمبدأ إنكار الذات.. هذه هي حقيقة تلك المرأة «ويني مانـديلا » – أكثـر نسـاء زمنها معاناة .

فمنـذ عـام 1958 وهـي تلهـث وراء زوجهـا.. وتـدفع معـه ثمـن إخلاصـه لقضـية وطنـه.. احتجزتها السلطات.. عذبوها.. لم تلن لها لائنة.. صمدت صمود الرجال.. وبعد أن يأسوا من أن ينتزعوا منها ما يدين زوجها.. أو تعترف لهم بأسراره.. وأسرار المقاومة التي كان يديرها.. أطلقـوا سراحها.. و وضعوا اسمها في اللائحة السوداء.. بالرغم من أنها عند القبض على زوجهـا لم تكـن قد عاشت معه حياةً زوجية بالمعنى المباشر للكلمة.. سواء على المستوى الزمني لعمـر الـزواج.. أو على المستوى الفعـلي كـما تعـيش جميـع النسـاء مـع أزواجهـن.. و لم تتمتـع بتلـك الحيـاة مـثلهن.. و اعتبارا لصبرها المتعاظم و أملها في ملاقـاة زوجهـا قبـل خروجـه مـن محبسـه أطلـق عليهـا لقـب « الأرملة الصبور».

وقـادت حمـلات واسـعة للمطالبـة بـإطلاق سراح زوجهـا.. خـلال الفـترة الأولي مـن سـجنه.. والتي قضاها في سجون مجهولة.. قبل أن ينقل إلى سجن «روبن آيلاند».. وتركزت تلك الحملات بشكل خاص في صحيفة «جون أفريك».. وهي تعيش وقتها في ظل إقامة جبرية فُرضت عليها من قبل السلطات.. وتتابع عن بعد كيف يسعى أحرار العالم للمطالبة بـإطلاق سراح زوجهـا.. وعـلى أمل أن يعيش الرجل ما تبقي من عمره وسط أفراد أسرته المنتظرة ما يزيد عن ربع القرن.

هذه المرأة نموذج فريد لامرأة وهبت نفسها.. وعمرها لزوج.. ورجل مناضل يبحث عن وطن غاب فيه أهله.

ويني تنحدر من نفس منطقة مانديلا (تراسنكي).. وهي المنطقة التي تنحدر منها زوجته الأولى.. لم يطل العيش المشترك بين ويني ونيلسون مانديلا إلا حوالي عشر سنوات حيث حكم نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا بالسجن مدى الحياة على مانديلا ليقضي 27 سنة من عمره خلف القضبان بسجن جزيرة روبن.. وكانت ثمرة زواج مانديلا بويني بنتين (زيناني وزيندزي).. وقد تزوجت الأولى فيما بعد.. وهي في السابعة عشرة من العمر.. الأمير دلاميني شقيق مساواتي الثالث ملك سويزلانر.. وبعد مرور سنتين فقط من إطلاق سراحه من السجن افترق مانديلا عام 1992 عن ويني قبل أن يطلقها رسمياً عام 1996 للأسف بعد تورطها في فضائح سياسية واستغلال نفوذ لم يعد مانديلا قادرا على تحملها.

وفي عام 2003 أصدرت محكمة في بريتوريا حكماً بالسجن خمس سنوات مع وقف التنفيذ في حق زوجة مانديلا الثانية « ويني ».. بعد إدانتها بتهم التزوير والسرقة في قضية قروض مصرفية.

وحكمت المحكمة الإقليمية في بريتوريا على شريكها المصرفي إيدي مولن حكما بالسجن سبع سنوات مع وقف تنفيذ سنتين منها.

وأعلن القاضي بيت جونسون لدى تلاوته الحكم «ليس هناك شك في أنك لعبتِ دوراً هاماً في كفاح التحرير ولكن شيئاً ماانحَرفت بعد ذلك».

وقد أدينت ويني مانديلا في 25 تهمة سرقة و43 تهمة تزوير بعد أن استغرقت محاكمتها نحو سنة.. وفي بيان وزع بعد نهاية الجلسة أعلنت ويني على الفور استقالتها من مقعدها كنائبة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي الحاكم ومن رئاسة رابطة النساء فيه ومن اللجنة التنفيذية للحزب.

«جراسا» زوجته الثالثة :

الزواج الثالث للرئيس الجنوب الأفريقي السابق بأرملة الرئيس الموزمبيقي السابق جاء بعد أشهر من المفاوضات الدولية لتحديد مهر العروس الذي يسمى «لوبولاك» الذي يمنح لعشيرتها طبقا للتقاليد الأفريقية.. وقد قاد المحادثات نيابة عن مانديلا زعيم عشيرته كينج بوليخايا زيليبانزي دايليينبو.. وبعد تنقلات عديدة بين وفد من أقارب مانديلا بقيادة زعيم عشيرته تم الاتفاق على تحديد المهر بستين رأسا من الماشية.. وقد صرح زعيم العشيرة آنذاك حول عدد الماشية بالقول «عدد الأبقار في (لوبولاك) لا دخل لأحد فيه.. حتى وإن دفع رولي هلاهلا (الاسم الآخر لمانديلا) مليون بقرة من أجل جراسا فهي تستحقها».. ونفى زعيم العشيرة حينها أن طليقة مانديلا ويني لم تكن سعيدة بزواجه.. وقد ذُكر في هذا السياق أن ويني التقت مع جراسا في عيد ميلاد مانديلا السادس والثمانين وبدا الود المتبادل بينهما.. تزوجت جراسا مانديلا في 18 يوليو 1998 في عيد ميلاده الثمانين وقبل سنة فقط من تقاعده من رئاسة جنوب أفريقيا.. الزواج المدني الذي تم في حفل خاص بمنزل مانديلا أعلنه رسميا نائب الرئيس آنذاك (ورئيس جنوب أفريقيا بعد مانديلا) ثابو مبيكي.. ذاكرا أن قاضي محكمة جوهانسبرج هو الذي أشرف عليه.

وكان الزوجان قد نفيا قبل ذلك وجود أي نية عندهما للزواج.. حتى بعد أن قام القس الجنوب الأفريقي ديزموند توتو.. رفيق مانديلا في النضال ضد نظام الفصل العنصري.. بانتقاد ـ وإن كان بطريق الدعابة ـ علاقة مانديلا وجراسا «غير الرسمية».. قائلا أنهما يقدمان نموذجا سيئا للشباب بعد ما تردد عن وجود علاقة بينهما.

ولم يحضر زواج مانديلا أي من أبنائه من زيجتيه السابقتين غير أن أخته الصغرى وأخوة جراسا ماشيل الثلاثة كانوا من بين الحضور.. وقد كان نائب الرئيس الجنوب الأفريقي ثابو مبيكي وزوجته هما الشاهدين في الزواج.. وما إن تسرب خبر زواج مانديلا حتى توافد الآلاف من المواطنين على مقر إقامته بجوهانسبرج حاملين الورود ومرددين الأغاني والأهازيج.. وكان كثيرون منهم قد عبروا عن خيبة أملهم من عدم تنظيم حفل زواج رسمي وشعبي للاحتفاء بالرئيس مانديلا وجعل زواجه يوم عيد وطنيا.. وكانت علاقة مانديلا بجراسا قد أسالت حبرا كثيراً وظلت لفترة محل متابعة واهتمام إعلامي كبير بجنوب أفريقيا.. وتروي جراسا ماشيل كيف أن الحب بينها وبين (ماديبا) «لم يكن من أول نظرة» إنما تطور مع مرور الوقت خاصة بعد أن دعا مانديلا ابنة جراسا جوزينا للعيش في بيته أثناء دراستها الجامعية في جنوب أفريقيا.. وتشير جراسا إلى أن نقاطا مشتركة عديدة تجمع مانديلا وزوجها الراحل سامورا ماشيل «عندما أستمع أحيانا إلى مانديلا يتحدث وكأنه سامورا».. جراسا ماشيل تقول عن السنوات التي قضتها مع مانديلا حتى الآن : «إنها كانت عامرة بشكل استثنائي».. وأن تجاربهما المؤلمة قربتهما من بعضهما البعض كثيرا.. وأنهما كانا محظوظين أن يجدا الألفة والرفقة المناسبة لبعضهما.. وإلى جانب الأعمال والمناسبات الخيرية التي ترعاها جراسا مع مانديلا بالإضافة إلى عملها الخيري التربوي الخاص.. فإنها كانت من المساهمين المؤسسين لجمعية «الكبار» التي أعلن مانديلا عن تأسيسها في 18 يوليو الموافق عيد ميلاده التاسع والثمانين.. وتضم الجمعية الدولية مجموعة كبيرة من الحائزين على جائزة نوبل والرؤساء السابقين.. من بينهم الرئيسان الأميركيان السابقان جيمي كارتر ، وبيل كلينتون.. ويرأس الجمعية التي تعمل على التصدي للمشاكل التي تواجه العالم القس ديزموند توتو.. جراسا ماشيل سعت لأن يكون موضوع حقوق المرأة أول القضايا التي تسعى الجمعية الدولية للتركيز عليها من منطلق حرصها على إعطاء فرص لملايين النساء في العالم : لأن يحصلوا على فرص مثل التي حصلت عليها هي في حق التعليم مثلا.. والذي خول لتلك القروية الفقيرة من إحدى المناطق الريفية القصية في موزمبيق لأن تشق طريقًا خاصًا لنفسها وتمضي في مسار مميز هو بالتأكيد نموذج مُلهِم يُحتذى به.

عندما تحدثت جراسا عن زوجها « نيلسون مانديلا » وصفته بأنه « الرجل الاستثنائي».. وإذا كان هناك إجماع عالمي على أن الرئيس الجنوب الأفريقي السابق «رمز الحرية والتسامح» استثنائي بكل المقاييس فإن مسار جراسا ماشيل لا يقل «استثنائية».. كانت في عمر الزهور عندما التحقت في بداية السبعينيات بجبهة تحرير بلدها (موزمبيق) التي كان يقودها الراحل سامورا ماشيل.. الذي أصبح زوجها فيما بعد ورئيسا لموزمبيق المستقلة.. وكانت أول وزيرة للتربية والثقافة بعد استقلال موزمبيق.. وهي تعتبر الآن المرأة أو السيدة الأولى الوحيدة في العالم التي تزوجت رئيسي- دولتين مختلفتين.

مسار جراسا ماشيل التي احتفظت بكل وفاء باسم زوجها الأول ماشيل.. حافل بالأحداث والذكريات الحلوة والمرة.. غير أنها أكدت في حوار مع صحيفة «الصانداي تايمز» البريطانية أنها عندما تنظر إلى حياتها السابقة فإن باستطاعتها تفسير كل شيء فيها.. باستثناء شيء واحد لا تجد له تفسيرا هو «ماديبا».. و«ماديبا» هو الاسم «العشائري» لنيلسون مانديلا.. الذي لا يتردد في القول بشأنها بأن جراسا «هي الرئيس THE BOSS وعندما أكون بعيداً عنها أكون ضعيفا».

لا تجد جراسا ماشيل تفسيراً لما حدث مع «ماديبا» لأنها وجدت نفسها زوجة لنيلسون مانديلا في يوليو 1998 في عيد ميلاده الثمانين.. وهي التي «أقسمت ألا تتزوج مرة ثانية».. كان الأمر يتطلب أن «يقنعها شخص استثنائي ـ مثل مانديلا ـ لتغير رأيها وتعود عن قسمها» كما تؤكد.. ولدت جراسا ماشيل في 17 أكتوبر 1945 في منطقة إنكادين في محافظة جازا بموزمبيق وسط عائلة ريفية فقيرة.. حيث تلقت تعليمها الأول في مدرسة تشرف عليها إرسالية دينية مسيحية قبل أن تحصل على منحة للدراسة في جامعة لشبونة بالبرتغال.. حيث درست اللغات.. وهي تتقن الآن خمس لغات (البرتغالية.. الإنجليزية.. الفرنسية.. الإيطالية.. والأسبانية)

وفي جامعة لشبونة وعاصمة المستعمر البرتغالي تفتح وعي جراسا على قضايا التحرر من الاستعمار لتلحق عام 1973 م بجبهة تحرير موزمبيق.. وتلتقي بزعيم الجبهة سامورا ماشيل الذي أصبح زوجها فيما بعد.. في 1975 وبعد استقلال البلاد عُينت جراسا وزيرة للتربية والثقافة.. وكانت المرأة الوحيدة في الحكومة.. وقد استطاعت أن تخفض نسبة الأمية من 93 بالمائة إلى 70 بالمائة خلال سنتين.. وقد عُرف حينها عن جراسا حرصها على الإشراف على كل ما يخص عملها بدون تدخل من أي أحد من زملائها في الحكومة وحتى من زوجها الرئيس سامورا ماشيل نفسه.. ويروى أنها «وبخت» زوجها علنا في مؤتمر للنساء الموزمبيقيات أشرفت على تنظيمه عام 1984 لما رأت أنه يحاول التدخل في سير المؤتمر.

في 1986 انقلبت حياة جراسا رأسا على عقب بعد مقتل زوجها سامورا ماشيل بطريقة مثيرة للشك في حادث سقوط طائرة.. وذلك أثناء عودته لبلاده من اجتماع في زامبيا.. وقد تم اتهام نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا آنذاك بالوقوف وراء الحادث لكن لم يظهر أي دليل يثبت ذلك.. وجدت جراسا نفسها أرملة وهي في الحادية والأربعين وسبعة أطفال تحت مسؤوليتها.. جوزينا (10 سنوات).. ومالنجا (7 سنوات) بالإضافة إلى 5 أطفال من الزواج السابق لزوجها الراحل.. تأثرت جراسا كثيرا لفقدان زوجها إلى درجة أنها لزمت الفراش ولم تتوقف لفترة طويلة عن البكاء ولم تعد تقوى على الجلوس حول طاولة الطعام مع الأطفال لكي لا ترى الكرسي الذي كان يجلس عليه زوجها الراحل.. جراسا التي كانت تشعر بأنها لم تعد تقوى على الحياة.. واستقالت من منصبها كوزيرة للتربية والثقافة.. تحكي كيف أن ابنها عاد يوما من المدرسة وكيف أخبرها أن «البيت أصبح باردا وحزينا جدا وأنه يجب عليها أن تتوقف عن البكاء».. لقد كان ذلك بمثابة دعوة للتعقل والواقعية موجهة لجراسا التي سرعان ما استعادت توازنها.. لتستفيق مبكرا في اليوم الموالي وتعيد ترتيب الطاولة لتجلس هي في كرسي زوجها الراحل وتترك كرسيها لابنتها.

لم تعِدْ جراسا ترتيب أوراقها فقط بل أعادت ترتيب كامل حياتها.. حيث عادت للعمل.. لتشتغل في مجال العمل الخيري في موزمبيق بالتركيز خصوصًا على رعاية الأطفال والنساء وهو العمل الذي تابعته بعد استقرارها في جنوب أفريقيا في فترة لاحقة.. وقد لفت عملها في هذا المجال الانتباه الدولي لتكلفها عام 1990 من قبل الأمم المتحدة برئاسة تقرير المنظمة الدولية لرعاية الطفولة (اليونيسيف) عن الأطفال الجنود.. وتقديرا لعملها الخيري حصلت جراسا ماشيل على عدة جوائز وألقاب عالمية.. آخرها لقب دام «Dame » البريطاني.. لتصبح أول سيدة أفريقية تحصل على هذا اللقب.. وذلك بتوصية من رئيس الوزراء البريطاني توني بلير وذلك بالتزامن مع تدشين التمثال الذي نصب لزوجها نيلسون مانديلا في لندن .

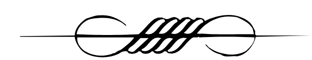
المستحيل :

قالت جراسا في تصريحات صحفية في بريطانيا إن ذلك التمثال كان من الأشياء المستحيلة التي يمكن توقعها ولا تزال لا تصدق رؤية «تمثال لرجل أسود في ساحة البرلمان بقلب لندن إلى جانب تمثالي الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن ورئيس الوزراء البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية ونستون تشرشل»..

وكان نيلسون مانديلا قد روى في كلمته عند الكشف عن تمثاله كيف أنه وقف في زيارة إلى لندن قبل 45 سنة رفقة رفيقه في النضال أوليفر تامبو في الساحة نفسها وقال لصديقه مازحا إنه يأمل يوما أن يتم رفع تمثال لرجل أسود إلى جانب الرئيس الجنوب الأفريقي الأبيض جان سموتس.. أوليفر تامبو رفيق درب نيلسون مانديلا.. كان حلقة الوصل بين الأخير وجراسا ماشيل.. فبعد وفاة سامورا ماشيل أصبح أوليفر تامبو الأب الروحي لأبناء صديقه الراحل.. وعندما تدهورت حالته الصحية في بداية تسعينيات القرن الماضي طلب تامبو من مانديلا أن يحل مكانه وأن يكون الأب الروحي لأبناء ماشيل.. وقد انتقلت جراسا ماشيل بعد ذلك للعيش في جنوب أفريقيا.. حيث تطورت علاقتها بمانديلا إلى أن وصلت إلى الزواج..

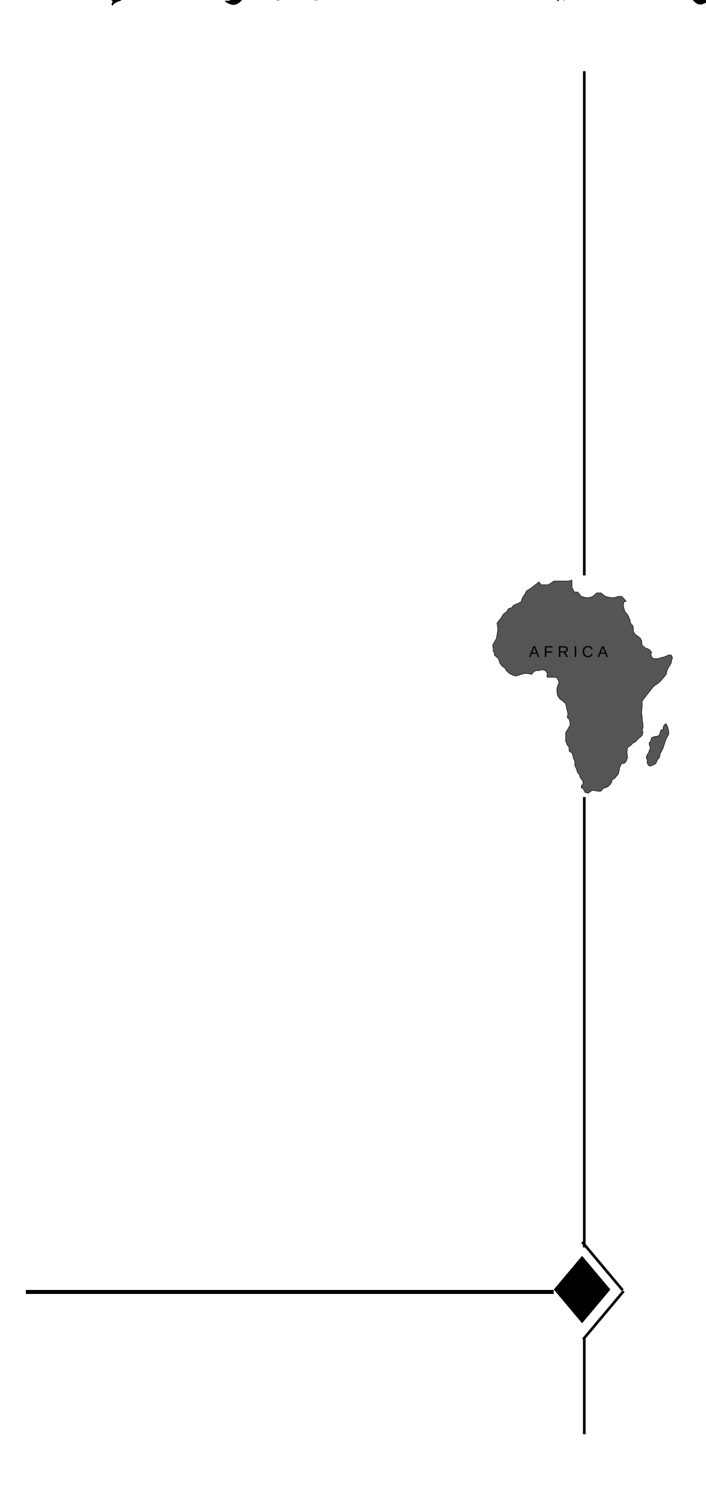
عندما التقت جراسا مع مانديلا كان الأخير ما زال يعاني من ردود أفعال طلاقه مع زوجته الثانية ويني وكانت رفقة جراسا بمثابة المعين في تجاوزها.. «كنا نحن الاثنان وحيدين جدًا وكنا نريد أحداً لنتبادل أطراف الحديث معه.. أحداً يفهمنا» كما تذكر جراسا ماشيل.. وتروي كيف وجدت نفسها وهي تقبل طلب مانديلا الزواج منها.. «كنت قريبة جدًا من أبنائي ولهذا لم أستطع إخفاءها (تقصد علاقتها مع مانديلا).. كنت أشعر براحة عندما أرى ماديبا لكن موضوع الزواج لم يكن مطروحا.. غير أن الأمر وصل إلى مرحلة أنه لم يعد ينقصنا إلا الزواج.. عندما أخبرت أبنائي بالأمر لم يستطيعوا تصديقه.. لقد أقسمت ألا أتزوج لكن الأمر تطلب إقناع شخص استثنائي لي لتغيير رأيي»..

وانتهى زواج مانديلا من ويني بعد خروجه من السجن.. وبعد انفصالهما وطلاقهما في النهاية تزوج مانديلا وهو في الثمانين من عمره من جراسا ماشيل أرملة الرئيس الموزمبيقي الراحل سامورا ماشيل.



الفصل الرابع

السجن جامعة نيلسون مانديلا المحنة .. و وفرحة الإف



كما قلنا تم اعتقال «مانديلا».. في سجن «جزيرة روبن» الذي يقع على بعد نحو 25 دقيقة من ساحل كيب تاون أحد أهم المعالم في جنوب أفريقيا.. وقد تحول هذا السجن سيئ السمعة فيما مضى حيث كان يتم فيه حجز السجناء السياسيين فيه إبان التمييز العنصري إلى معلم سياحي يحرص الزائرون لجنوب أفريقيا على مشاهدته والتجول في أروقته للاطلاع على حجم المعاناة التي تعرض لها السجناء وعلى رأسهم الرئيس السابق نيلسون مانديلا طوال فترة مكوثهم فيه إلى أن تم خروج آخر دفعة من سجناء جزيرة روبن في عام 1991.

فماذا أولاً عن تاريخ هذا السجن وطريقة عيش المساجين فيه وكيف كان يتم التواصل فيما بينهم.

في البداية كان مجرد الانتماء إلى حزب المؤتمر الأفريقي هو أهم الأسباب التي تؤدي إلى إلقاء القبض على المواطنين.. وكانت التهم التي توجه إلى المواطنين تتراوح بين الانتماء للحزب.. وتجنيد الشباب للحركة.. وأخيرًا الهروب إلى الخارج والانخراط هناك في أنشطة الحزب المناهضة لنظام التمييز العنصري.

ولأن نظام التمييز العنصري آنذاك لم يكن يحترم استقلال الدول المجاورة.. فكانوا عادةً يقتحمون حدود هذه الدول ويختطفون مناوئيهم المقيمين بها بمساعدة جواسيسهم هناك فيما يشبه عملية الاختطاف.

وقد بني سجن جزيرة روبن بهدف وضع المعتقلين السياسيين المناهضين لحكم التمييز العنصري.. ويعود تاريخ بناء السجن إلى القرن السابع عشر.. حيث كان السجن مخصصاً في ذلك الوقت لاعتقال القادة المحليين المناوئين للاستعمار البريطاني والهولندي في خمسينيات القرن السابع عشر.. وكانوا خلال هذه الفترة يحضرون إلى السجن معتقلين سياسيين من دول مثل إندونيسيا وبنما.. وكان بعضهم يُجبرون على الرق.. وفي التاريخ الحديث.. أي منذ عام 1961م.. استخدم السجن لاعتقال قيادات المقاومة ضد حكومة التمييز العنصري.

اعتقال نيلسون مانديلا :

لقد صدر الحكم على مانديلا بالسجن مدى الحياة.. وبدأ تنفيذه في عام 1964م.

واستمر اعتقال مانديلا في جزيرة روبن آيلاند حتى عام 1982م.. ولكنه نقل في ذلك العام إلى سجن آخر في كيب تاون يسمى سجن بولسمور.. والسبب في ذلك هو أن سجن روبن شهد في ذلك العام إضرابا كبيرا عن الطعام قاده نيلسون مانديلا نفسه وبعض القادة السياسيين الآخرين.. وكان إبعاد مانديلا ورفاقه يهدف إلى تفتيت الإضراب وإضعاف نفوذ هؤلاء القادة.

مانديلا.. في السجن :

كان السجناء الآخرون يكنون احتراماً كبيراً لمانديلا ورفاقه من القادة السياسيين.. كذلك كان تقدير حراس السجن لمانديلا كبيراً أيضا.. ويعود ذلك إلى أن مانديلا كان قد اكتسب قبل قدومه إلى السجن شهرة سياسية واسعة امتدت منذ أربعينيات القرن العشرين وحتى أوائل الستينيات.. وبالإضافة إلى ذلك كانت معاملة كبار القادة في السجن.. وخاصة مانديلا.. تختلف عن معاملة بقية السجناء.. فقد كان يسمح له على سبيل المثال باستقبال الضيوف.. وذلك لأن مانديلا كان قائدا معروفا وله شعبية واسعة.. كذلك لم نسمع بأن مانديلا تعرض للتعذيب الجسدي مثل بقية السجناء.. وفيما عدا ذلك كان مانديلا يعامل مثل بقية السجناء.. حيث كان يؤدي الأشغال الشاقة.. ويتناول طعام السجن الرديء.. ويلبس ثياب السجن.

وكان كبار القادة يوضعون في قسم خاص يسمى القسم (ب).. هذا القسم كان يتكون من زنازين صغيرة منفصلة كان القادة يوضعون فيها في وضع شبه انفرادي.. حيث كان يسمح لهم خلال ساعات النهار بالالتقاء.. بعضهم ببعض.. ومن ثم يعيدونهم في ساعات الليل مرة أخرى إلى تلك الزنازين.. حيث يقضون الليل منفصلين.. وذلك عكس السجناء الآخرين الذين كانوا يوضعون في غرف كبيرة تتسع لما بين ثلاثين وأربعين سجينًا.

كان السجناء يشكلون أحياناً لجاناً خاصة تعمل على تنسيق التواصل بين السجناء.. يضاف إلى ذلك أن السجناء السياسيين العاملين في المطعم كانوا بحكم طبيعة عملهم يتمتعون بحرية الحركة عندما كانوا ينقلون الطعام إلى المساجين الآخرين.. وكان القادة مثل مانديلا يستغلون هذا الوضع لنقل المواد السياسية إلى السجناء الآخرين.. أي أن التواصل كان يتم بطريقة غير مباشرة.

كانت كتابات القادة تُهَرَب أحياناً عن طريق ذوي الخبرة من الزوار الذين كانوا على دراية بالأوضاع خارج السجن.. وينقلون المعلومات عن هذه الأوضاع إلى الخارج.. مشكلين بذلك حلقة وصل بين القادة داخل السجون والخارج.. وكان مرض السجين السياسي ونقله إلى المستشفى يمثل أيضا فرصة للسياسيين للالتقاء بالأطباء والممرضين وغيرهم من زوار المريض السياسي.. الذين كانوا يحضرون للمستشفى خصيصا لتهريب الأشياء والمعلومات إلى داخل السجون.. ومن الأمثلة الناجحة لتهريب المواد السياسية إلى خارج السجن كتاب نيلسون مانديلا (طريقي الطويل إلى الحرية).. أعد مانديلا معظم مادة هذا الكتاب داخل السجن.. وتمكن من تهريبه عن طريق سجين سياسي عربي أطلق سراحه من سجن روبن آيلاند في عام 1976م.

بعد حوالي ثلاث سنوات من تهريب كتاب مانديلا (طريقي الطويل إلى الحرية) وجد الحراس أثناء تنقيبهم في حديقة السجن بعض المواد السياسية التي كتبها مانديلا ورفاقه.. ومن ضمنها بعض أجزاء هذا الكتاب.. ولأن معظم هؤلاء القادة كانوا يقضون عقوبات بالسجن المؤبد لم تجد إدارة السجن عقوبة إضافية لارتكابهم هذه المخالفة سوى حرمانهم من حق التعليم الذي كان متاحا للمساجين في تلك الأيام.. وذلك باعتبار أنهم استغلوا الأدوات التعليمية.. مثل الورق والقلم.. في كتابة المذكرات السياسية.

قضية ريفونيا :

سيسولو حكم عليه في نفس قضية مانديلا.. وهي القضية التي اشتهرت شعبيا باسم (قضية ريفونيا).. نسبة إلى مزرعة ريفونيا التي قبض فيها على معظم المدانين في تلك القضية.. بالإضافة إلى أنهم كانوا يخبئون فيها كل الأسلحة والوثائق الخاصة بخططهم المناهضة لسياسة التمييز العنصري.. ووضع كلاهما في السجن في عام 1964م.

وكان الاثنان في نفس القسم في زنزانتين متجاورتين تقريباً.. كان مانديلا معتقلا في الزنزانة رقم (5).. بينما كان سيسولو معتقلا في الزنزانة رقم (17).

ويقول عن ذكرياته مع مانديلاً :

لم يكن برنامج « نيلسون مانديلا » يختلف كثيرا عن برنامج بقية المساجين.. كان كالعادة يقوم من نومه في الصباح مثل بقية المساجين ويتناول إفطاره الذي كان يتكون عادة من كسرات الخبز باللبن وكوب من الشاي.. ثم يذهب إلى مكان العمل.. كان أيضاً يتابع مع بقية المساجين تنظيف حديقة السجن لفترة ساعة يوميا.. ولكن عندما أوقفوا العمل الشاق في أواخر السبعينيات أصبح لديه المزيد من الوقت للقراءة ومتابعة أعمال الحديقة أثناء ساعات النهار.

وأحياناً كان يسمح له بمطالعة الكتب والمجلات.. فبعد عام 1981م تبقى عدد قليل من المساجين الذين تجاوزوا عشر سنوات في السجن.. وهؤلاء كان يسمح لهم بشراء الصحف.. كما سمح لهم بالورق والقلم.. والمؤكد أن المساجين هم الذين طوروا بمرور الأيام والسنوات الأوضاع داخل السجن بكفاحهم ومقاومتهم.. فقد كانت أوضاع السجن سيئة جدا بادئ الأمر.. وكان المساجين ومن بينهم مانديلا ينامون على البلاط.. وما كان للامتيازات التي حصل عليها المساجين بعد ذلك أن تتحقق لولا الضغوط المكثفة التي مارسها المساجين بالدخول في إضراب عن الطعام حينا.. وتهريب الرسائل إلى ناشطي حقوق الإنسان حينا آخر والإلحاح المستمر بإصلاح الأوضاع.. وعموما لم يكن المساجين يضيعون وقتهم في السجن بل كانت هناك برامج ودراسات سياسية على مستوى يومي بغرض إعداد المساجين لقيادة الحياة السياسية في المستقبل.

ورويداً.. رويداً بدأت تلوح في الأفق أيضاً امتيازات أخرى بدأ منحها للمساجين كلهم دون تمييز للقادة.. ففي السبعينيات سمح للمساجين بأن يناموا على الأسِرة.. وفي عام 1981م سمح لقدماء المساجين بشراء الصحف كما ذكرنا.. ولكن رقابة السجن كانت تنزع عن الصحف الكثير من الموضوعات التي كانوا يرون أنها تثير المساجين.. وفي السبعينيات أيضا سمح للمساجين بالتمارين الرياضية.. وكانت الألعاب المفضلة لنيلسون مانديلا كرة المضرب والشطرنج.. وكذلك سمح للصليب الأحمر بإدخال الأغذية.

مانديلا يرفض الهروب :

حدث أن أخطر أحد الحراس مانديلا خلال السبعينيات بأنه قد تم تجهيز بدلة غوص خاصة به للسباحة من السجن إلى زورق في انتظاره لنقله لمدينة كيب تاون ومن ثم إلى خارج البلاد.. ولكن نيلسون مانديلا بعد تفكير عميق رفض هذا العرض معتبرا أنه قد يكون مكيدة للتخلص منه أو لتشويه صورته أمام أعضاء حزب المؤتمر الأفريقي.

وفي الستينيات كان المعتقلون خليطاً من السجناء السياسيين والمدانين في قضايا جنائية.. ولكن في السبعينيات والثمانينيات كان كل المعتقلين سياسيين.. وفي عام 1989م أفرج عن بعض القادة السياسيين.. حيث كانت الأوضاع في الخارج قد بدأت في التغير.. وكان عدد المفرج عنهم في ذلك العام 18 معتقلا منهم والتر سيسولو وثابو أمبيكي وغيرهم.. ثم أفرج عن مانديلا في عام 1990م.. وأطلق سراح آخر فوج من المعتقلين السياسيين في مايو 1991م.

قبل الإفراج :

أبلغ مانديلا بقرار الإفراج قبل أيام قليلة من إطلاق سراحه.. والذي حدث هو أن إدارة السجن قد تحفظت على مانديلا في منزل بداخل السجن مع اقتراب موعد إطلاق سراحه.. وفي الشهور القليلة التي سبقت إطلاق سراحه سمح له بزيارات كثيرة من جانب القيادات النقابية وقيادات حركات التحرر وبعض كبار المسؤولين من خارج جنوب أفريقيا والقساوسة وأئمة المساجد.. كانوا في الواقع يحاولون إزالة بعض التوترات الناجمة عن اعتقاله ويهيئون الأوضاع لإطلاق سراحه.

نعم كان ذلك اليوم من الأيام غير العادية في تاريخ جنوب أفريقيا.. كان العالم كله ينتظر لحظة الإفراج عن نيلسون مانديلا.. ولكن الوضع في جنوب أفريقيا كان مثيرا للغاية.. كان كبار السن من الرجال والنساء يبكون غير مصدقين أن هذا الرجل الطاعن في السجن قد أفرج عنه أخيرا.. وخرج ملايين الشباب والشيوخ إلى الشوارع يهتفون ويرقصون من شدة الفرح.. كان يوما عظيما من أيام تاريخنا لدرجة أن الإعلان الرسمي لاستقلال جنوب أفريقيا فيما بعد لم يكن في مستوى الإثارة التي أحدثها الإفراج عن نيلسون مانديلا.. وفي اعتقادي أن اليوم الذي أفرج عنه مانديلا هو اليوم الحقيقي لإعلان استقلال جنوب أفريقيا.. بعد الحرية .

قيل : إن مانديلا زار سجن روبن آيلاند 15 مرة بعد إطلاق سراحه.. وكانت معظم زياراته لروبن آيلاند تتم في صحبة كبار الزوار من رؤساء الدول الذين كانوا يرغبون في رؤية مقر اعتقاله.. وفي بعض الأحيان كانت الزيارة تتم لحضور بعض المناسبات الخاصة التي تقام في روبن آيلاند.

ويقال : إن شهرة مانديلا استمدها من دخوله لسجن جزيرة روبن وهناك قول آخر أن العكس هو الصحيح أي أن سجن جزيرة روبن أصبح شهيرا لاحتجاز زعيم بحجم مانديلا فيه.

لاشك أن السجن هو الذي لقي اهتماما كبيراً لأنه كان مقر اعتقال نيلسون مانديلا وكبار قادة حركة المقاومة ضد التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا.. علينا ألا ننسى أن مانديلا كان قائدا شعبيا شهيرا حينما وضع بجزيرة روبن آيلاند.. كذلك لا ينبغي أن ننسى أن كل الحملات والتظاهرات السياسية التي كانت تنظمها القيادات النقابية وزعماء التحرر كانت ترتكز على شعار (أطلقوا سراح نيلسون مانديلا والمعتقلين الآخرين).. حيث كان اسم مانديلا يذكر أولا ثم يُردف به المعتقلون الآخرون.. واستمر ذلك لفترة عشرين عامًا.

يمثل مانديلا بالنسبة لشعبه الحرية وقوة الإرادة ورح المقاومة وكل القيم التي يمكن ربطها بالإنسانية.. كان هذا الرجل يبث في رفاقه الحماس والرغبة في التغيير حتى تحقق التغيير فعلا.. ولذلك فإن مانديلا يمثل بالنسبة إلى أيضاً الأمل في التغيير إلى الأفضل.

تقرر أن تكون الجزيرة متحفاً لتذكير الأجيال بالأحداث الجسام التي قادت إلى استقلال جنوب أفريقيا.. نريد أن تبقى الجزيرة حية لتشعر زوارها بمعاني الكفاح ضد العنصرية وعدم التدخل في شؤون الدول الأخرى والابتعاد عن إثارة الحروب وغير ذلك من القيم.

ونفسح المجال قليلاً لصاحب الشأن نفسه يحدثنا عن أيامه في هذه المحنة.. وكيف كانت بداياتها.. وكيف مرت عليه لياليها الطويلة.. ونستعير بعض المقتطفات من سيرته الذاتية.. ونتركه أولاً يصف لنا الجزيرة التي سجن بها :

يقول مانديلا عن جزيرة روبن : «خلال ثلاثة قرون كانت هذه الجزيرة سجناً لكل الوطنيين المبعدين وكبار المقاومين والديمقراطيين».

أول ما فعله «مانديلا» عندما دخل زنزانته أن كتب على جدرانها ما يلي : «عندما يكون المرء في السجن يقابل الزمن وجهاً لوجه.. لا يوجد شيء يثير الفزع أكثر منه»

بينما يقول عن السجن نفسه :

«إن حياة المعتقل روتينية.. تتماثل فيها الأيام حتى تختلط الأشهر والسنوات.. وإن أي شيء يخرج عن المعتاد يقلق السلطات.. لأن الروتين علامة من علامات حسن الإدارة في السجن.. وقد كانت الساعات من أي نوع ممنوعة.. وكنا نعتمد على الأجراس وصفارات السجانين وصيحاتهم لمعرفة الوقت.. وكان من بين أوائل ما فعلته عند دخولي السجن هو أن أسجل تقويمًا على الحائط.. فإن الإنسان إذا فقد قبضته على الوقت فقد قبضته على سلامة عقله » .

« إن التحدي الذي يواجه كل سجين خاصة السجين السياسي هو المحافظة على ذاته في السجن وأن يخرج من السجن دون أن يتضاءل.. وأن يحتفظ.. بل ويزيد من عقائده.. وأول مهمة لتحقيق ذلك هو أن يتعلم المرء كيف يبقى.. ولكي يتحقق ذلك فلا بد للمرء أن يعرف هدف عدوه.. فإن السجن يهدف إلى هزيمة معنويات الإنسان.. وتقويض عزمه.. ولكي يتحقق ذلك تحاول السلطات استغلال كل ضعف وتحطيم كل دافع.. وأن تبطل ما يدل على التفرد.. وذلك لكي تقضي على تلك الومضة التي تضفي على كل آدمي هويته.

وكان بقاؤنا يعتمد على فهم ما تحاول السلطة أن تفعله وتشارك ذلك الفهم.. كان من المستحيل أن يقاوم الفرد منفردًا.. وكان خطأ السلطة الأكبر هو إبقاؤنا معًا.. لأن ذلك قوَّى تصميمنا.. وهكذا عاون الأقوياء مَن هم أقل قوة وصرنا جميعًا أقوياء.. وفي النهاية كان علينا أن نصنع طريقة حياتنا داخل المعتقل.. وكما اعترفت بذلك السلطات فقد كنا نحافظ نحن على النظام أكثر من السجانين».

ويقول – في مكان آخر – : «إن المعتقل لا يأخذ من الإنسان فقط حريته.. ولكن أيضاً يحاول أن يحرمه من هويته.. فإن الجميع يرتدون نفس الملابس.. ويأكلون نفس الطعام.. ويتبعون نفس برنامج الحياة اليومي.. وإن الدولة المتسلطة فقط هي التي لا تسمح باستقلال الإنسان وتفرده» .

و يقول أيضاً :

« كنت على يقين دائماً من أنه توجد في أعماق كل قلب إنسان الرحمة والإنسانية.. حيث إن الحب هو دائماً الأقرب إلى القلب من أي شيء آخر.. والخير الكامن في الإنسان هو شعلة قد تخبو جذوتها ولكنها أبدا لا تنطفئ».

لم يغير مانديلا مواقفه وهو داخل السجن.. بل ثبت عليها كلها.. وكان مصدرا لتقوية عزائم سواه من المسجونين وتشديد هممهم.. معتصماً بإيمانه وهو يناصر قضية بلاده دون كلل.. ولا ملل أو إعياء.. وعندما سأله البعض كيف يمضي مثل هذه السنين الطويلة في الزنزانة دون أن يصاب بالجنون رد قائلا: «إنها المبادئ السامية التي أعشقها والتي أعانتني على الجلد والتحمل» .

ويذكر مانديلا في مذكراته الشخصية أنه أثناء وجوده في المعتقل اقترح زملاؤه عليه كتابة مذكراته احتفاء ببلوغه الستين على أن يتم تهريبها خارج السجن والبلاد لنشرها كي تعمل على إذكاء شعلة المقاومة التي كانت قد خفتت آنذاك.. ونجح مانديلا وزملاؤه فيما اعتزموه.. غير أن تلك المذكرات لم يكتب لها أن ترى النور.. حيث ذكر أنه وزملاءه كانوا يخبئون مذكراتهم وأوراقهم الخاصة في مخابئ صنعوها في عنبر السجن خصيصاً لهذا الغرض.. فلما قامت إدارة السجن بعمل صرف صحي للسجن حفرت حفرا عميقا في الأرض لوضع مواسير الصرف فاكتشفت هذه المخابئ وضبطت الأوراق التي فيها.. ثم نقلتهم إلى سجون بعيدة متفرقة عقاباً لهم علي هذه المخابئ والمذكرات.

وكما علّق مانديلا.. «كان المقصود من سجون جنوب أفريقيا أن تشلّنا فلا تعود لدينا بعد ذلك قوة وشجاعة لمتابعة مُثُلنا..» .

وكان يجري إيقاظ السجناء قبل الفجر ليستهلّوا يوماً طويلاً من العمل الشاق.. وفي ثلاث عشرة سنة.. كان مانديلا يُقاد إلى مقلع للأحجار الكلسية وهو مصفود ويُرغم على اقتلاع الكلس من الجُرف الصخرية القاسية تحت الشمس الحارقة.

وحتى في ظل هذه الظروف الفظيعة.. تمكّن مانديلا من الدراسة وشجّع السجناء الآخرين على إشراك بعضهم لبعض في المعرفة وعلى مناقشة أفكارهم.. وكانت المحاضرات تقام سراً وآلَ السجنُ إلى أن يكون «جامعة مانديلا» ولم يتراخَ مانديلا في جهوده الرامية إلى تغيير الآراء المغلوط فيها وخلق الحلفاء له ممن هم حوله.. وفي مآل الأمر كسبت عزيمته الوطيدة الاحترام حتى من حراس السجن..

وكان العذاب الأقسى من ذلك بكثير وعليه أن يتحمله هو عجزه عن إعانة أفراد أسرته أو حمايتهم من اضطهاد السلطات الدائم لهم.. فقد هوجم بيت مانديلا وأُحرق.. وتوالت على زوجته أعمال التحرش والتوقيف والاستنطاق.. وكان مانديلا في السجن عندما علم بوفاة أمه على إثر نوبة قلبية.. وملأه بالألم المبرّح تفكيره أنها قد توفّيت قلقاً عليه.. كما كانت حالتها في كل السنين الطويلة من صراعه في سبيل الحرية والكرامة.. وبعد ذلك.. أُنبئ بأن أكبر أبنائه قُتل في «حادث» بالسيارة مريب إلى حد كبير.

ومع ذلك.. فقد أبى طوال ذلك الحين أن يتخلّى عن الأمل.. وفي عام 1978 .. بعد مكوثه في السجن ست عشرة سنة.. سُمح له بأن يحظى بمقابلة مباشرة مع ابنته«زيني».. والتي أحضرت معها إلى السجن وليدتها الجديدة.. وكانت ابنته في المرة الأخيرة التي ضمّها مانديلا فيها إلى صدره صغيرة صِغَر الوليدة التي تصطحبها في ذلك اليوم.. وكان طيلة زيارتها يمسك بحفيدته بذراعيه.. وكتب بعد ذلك: «كان فرحاً عميقاً أن أمسك برضيعة حديثة الولادة.. شديدة الغضاضة والطراوة.. بيديّ الخشنتين.. تلك اليدين اللتين لم تُمسكا منذ زمن طويل بغير المعاول.. ولا أظن أن أحداً كان بإمساكه برضيع في أي وقت أسعد مما كنت في ذلك اليوم».

وطلبت إليه زيني أن يسمي الطفلة.. وفكّر.. وهو ينظر إلى حفيدته.. في المستقبل وكيف أن التمييز العنصري عندما تشبّ سوف يكون ذكرى بعيدة.. وفكّر فيها وفي جيلها الجديد وهو يسير بفخر ومن دون خوف تحت شمس الحرية.. وفي البلد الذي من شأن الشعب كله أن يعيش في مساواة ووئام.. ومع هذه الأفكار التي كانت تدوّم في ذهنه.. سمّى الطفلة الصغيرة «زازيو».. ومعناها «أمل»[1].

ومن داخل زنزانته.. واصل إلهامه لشعب جنوب أفريقيا.. ومع أنه كان عاجزاً عن التواصل معهم.. فقد كان مجرد وجوده مصدراً للأمل.

وأعلن العالم عن تقزّزه من التمييز العنصري وتأييده للذين يقاومونه من خلال العقوبات الاقتصادية والمقاطعات الثقافية والرياضية.. وإذ شعرت حكومة جنوب أفريقيا بهذا الضغط.. تقدّمت بعرضها إطلاق سراح مانديلا قبل نهاية مدة المحكومية في مناسبات عدة.. وبثبات رفض مانديلا هذه العروض.. التي كانت تضع استقامة حركة التمييز العنصري موضع الريبة.. ورفض أن يفكّر في حريته قبل أن تتحقّق حرية بلده بأسره.. فبعينيه.. كانت دولة جنوب أفريقيا كلها سجناً..

كان مانديلا قبل عشرات السنين من سجنه قد أبدى رأيه في أن التربية يجب ألا تقتصر على «الصفوف» و «قاعات المحاضرات».. إنما على الناشطين الحزبيين أن يحولوا كل بيت وكوخ وحديقة إلى مدرسة أو مركز لبث الوعي الوطني.

(1) شاء القدر أن تتوفى هذه الطفلة فيما بعد في يوم تحقيق حلم جدها .. وهو افتتاح كأس العالم 2010 في بلاده .

وهكذا تحولت جزيرة «روبن» التي سجن فيها مانديلا بفضل وجوده بها.. وما حظيت به بسبب ذلك من شهرة إلى مركز للتعليم.. وصار هو رمزاً للنضال الوطني في طول البلاد وعرضها .

رسالة من مانديلا:

وفي 10 يونيو 1980 تم نشر رسالة استطاع مانديلا إرسالها للمجلس الأفريقي القومي قال فيها: «اتحدوا! وجهزوا! وحاربوا! إذ ما بين سندان التحرك الشعبي.. ومطرقة المقاومة المسلحة.. سنسحق الفصل العنصري».

رغم أن حريته عُرضت عليه مرات عدة إذا ما تنازل عن النضال فقط ضد نظام الفصل العنصري.. ففي عام 1985 عرض على مانديلا إطلاق سراحه في مقابل وقف المقاومة المسلحة.. إلاّ أنه رفض العرض.. فقد كانت صفقة لا يوافق عليها إلا خائن باع وطنه.. لكن مانديلا كان مصنوعاً من مادة أكثر صلابة ورفض تقديم تنازلات أساسية سعى الأفريقيون البيض للحصول عليها..

تكاتف دولي للإفراج عن مانديلا :

وخلال سنوات سجنه السبعة وعشرين.. أصبح النداء بتحرير مانديلا من السجن رمزًا لرفض سياسة التمييز العنصري.. وبدأت حملة دولية للإفراج عن مانديلا مع تشديد الحكومات للعقوبات المفروضة على جنوب أفريقيا التي عزلت البلاد عن العالم الخارجي.

الإفراج عن مانديلا :

بقي مانديلا في السجن حتى 11 فبراير 1990 عندما أثمرت مثابرة المجلس الأفريقي القومي.. والضغوطات الدولية عن إطلاق سراحه بأمر من رئيس الجمهورية « فريدريك ويليام دى كليرك » الذي أعلن إيقاف الحظر الذي كان مفروضاً على المجلس الأفريقي.. وفي النهاية.. حان يوم إطلاق سراحه.. وفي ذلك اليوم.. في الحادي عشر من فبراير 1990.. كان يخاطب حشداً في «كيب تاون» قائلاً:

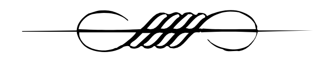
«أقف هنا أمامكم.. لا بوصفي نبياً.. بل خادماً متواضعاً لكم.. أيها الشعب.. فتضحياتكم البطولية التي لا تعرف الكلل هي التي جعلت من الممكن لي أن أكون هنا اليوم.. ولذا أضع سنين حياتي الباقية بين أيديكم»..

وكان مانديلا يحلم ببلد لا يحكمه السود ولا البيض.. بل بـ«أمة عدل».. يتمتع فيها كل الناس بمعاملة متساوية.. وفي إحدى المرات قال.. «إنه مثال آمل أن أعيش من أجله وأن أحقّقه.. ولكنه مثال أنا مستعد أن أموت من أجله.. إذا دعت الحاجة»..

الخروج من السجن :

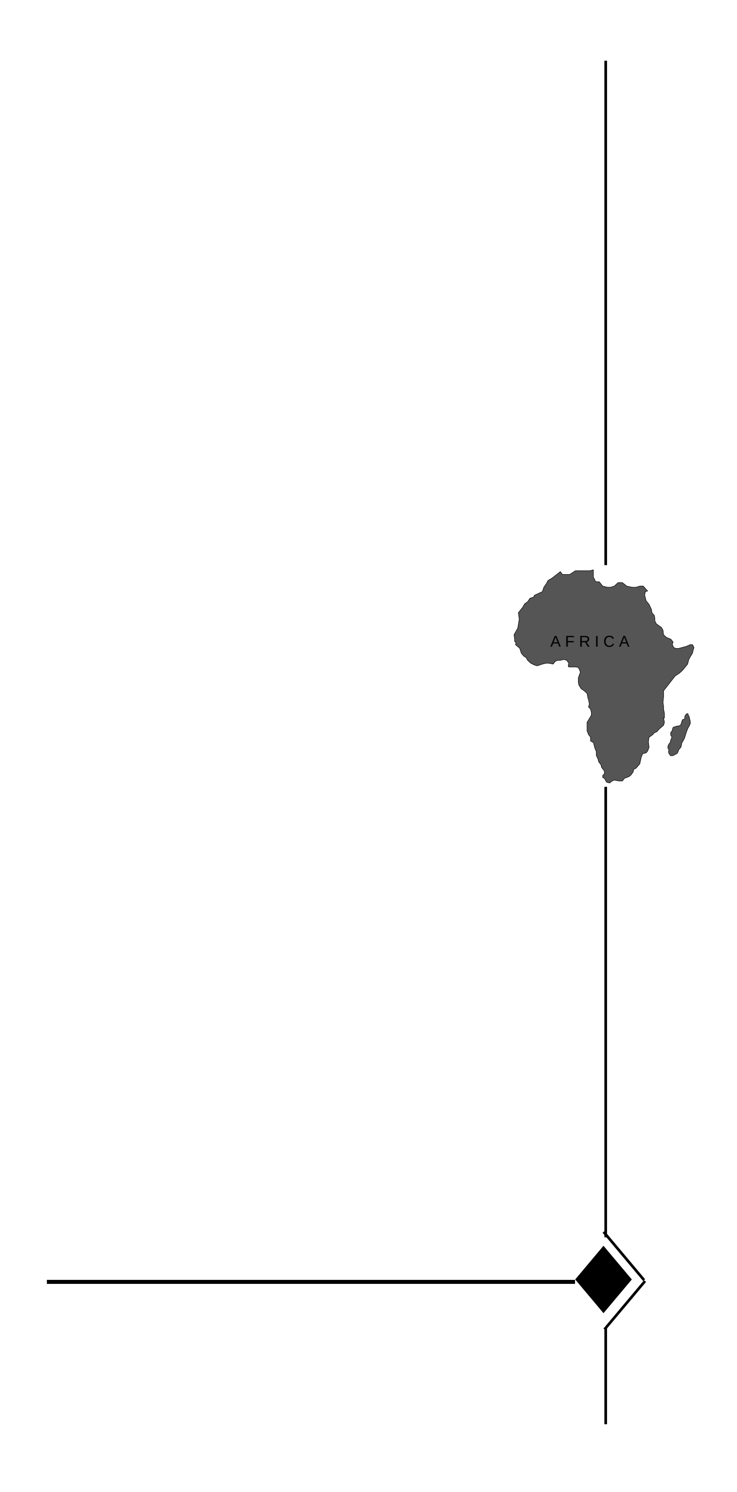
خرج مانديلا من السجن بعد عشرة آلاف يوم كاملة في المعتقل.. وكان عمره وقتها واحداً وسبعين عاماً ..وعند خروجه من السجن قال مانديلا : «لم يدر في خلدي قط إنني لن أخرج من السجن يوماً من الأيام.. وكنت أعلم بأنه سيجيء اليوم الذي أسير فيه رجلاً حراً تحت أشعة الشمس والعشب تحت قدمي.. فإنني أصلاً إنسان متفائل ..وجزء من هذا التفاؤل هو أن يبقي الإنسان جزءاً من رأسه في اتجاه الشمس وأن يحرك قدميه إلى الأمام».. وبعد إطلاقه تحوّلت غرفته في السجن إلى مركز سياحي..

وفيما بعد.. ووسط مراسم مثيرة للعواطف.. وبينما كان العالم أجمع يحتفل ببدء الألفية الجديدة زار مانديلا مجدداً زنزانته التي أصبحت الآن هي والمعتقل ككل معلماً سياحياً.. وتنظم الدولة حالياً رحلات سياحية إلى المعتقل بمعدل رحلة كل ساعة تقريباً توصل إلى مبنى السجن.. ويستقبل الأفواج هناك مرشدون سياحيون.. بعضهم كانوا سجناء سابقين بنفس السجن يشرحون للزوار أوضاع السجن والسجناء فيما مضى بالمعتقل.. ثم يقودهم في النهاية إلى حيث سجن مانديلا.. والتي أمضى فيها 22 عاماً من بين 27 عاماً هي جملة الفترة التي سجن فيها بجزيرة روبن.. وأضاء شمعة رمزاً للتصالح.. حيث المعتقل الذي سجن فيه « نيلسون مانديلا ».. وهي بلا شك تجربة يشعر فيها الإنسان بما يمكن أن تحققه الإرادة الإنسانية الصلبة وكذلك التضحية الهائلة التي قدمها مانديلا ورفاقه من أجل الإنسانية جمعاء..



الفصل الخامس

دكلريك ينزع فتيل الثورة ومانديلا رئيسًا للبلاد !!



عندما أتى « دكلريك »[7] إلى الحكم في جنوب أفريقيا استشعر أن جنوب أفريقيا وقتها كدولة متوترة حكمها ليس سهلاً .. وكان لديه قناعة خاصة مفادها أن مانديلا هو الشخص الوحيد القادر على نزع فتيل الثورة الكامنة داخل المجتمع الأفريقي الأسود من بني جلدته.. وهو الوحيد الذي يستطيع أن يقنع شعبه بأن يوافق على التنازلات الضرورية لإبقاء جنوب أفريقيا البيضاء طافية فوق سطح الحكم.. وممسكة بمقاليده.. كما أنه هو الوحيد الذي يمكن أن يعطي البيض مستقبلاً يستطيعون العيش معه.

فاتخذ قراره.. وأفرج عن مانديلا دون شروط.. وكان« دكلريك » يأمل أن يشرك مانديلا في عملية مطولة من التفاوض يمكن من خلالها الضغط عليه لتقديم تنازلات حيوية حاسمة.. إلا أنه وبعد العديد من الأخذ والرد كان « دكلريك » هو الذي قام بالتنازلات الأساسية وليس مانديلا.

لكن بعد فترة من الإفراج عن « مانديلا » تحول الأمل إلى يأس.. أدى اندلاع العنف في الأحياء إلى القتال بين السود بعضهم البعض واتهمت قوات الأمن في جنوب أفريقيا بالتواطؤ في محاولتها للتقليل من شأن موقف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

(1) يجدر هنا الإشارة إلى واقعة حدثت مؤخراً ترتبط بشكل ما بعدم استقرار الأمور الأمنية في « جنوب أفريقيا » حتى بعد قيام حكومة الأغلبية هناك .. حيث ذكرت الشرطة في جنوب أفريقيا إن الزوجة السابقة لرئيس البلاد الأسبق خلال حكم الأقلية البيضاء أف دبليو دكلريك قتلت بوحشية في شقتها الفاخرة في مدينة كيب تاون. . وقد قتلت ماريكا دكلريك.. البالغة من العمر 64 عاما.. طعنا وخنقا.. حسب مصادر الشرطة. .. وقد عبرت شخصيات سياسية من كافة أطراف المشهد السياسي الجنوب أفريقي عن دهشتهم وصدمتهم لموتها .. وقد عثر على جثة السيدة الأولى سابقا في هذا البلد الأفريقي .. بعد أن أخفقت في حضور موعد لمزينها الخاص .. ولم تلاحظ الشرطة اختفاء أي من المقتنيات الموجودة في شقة.. ولا يعرف حتى الآن الدافع وراء مقتلها.. حسب الناطق باسم الشرطة ويكوس هولزاوزن.. وموت السيدة دكلريك هو آخر حلقة من سلسلة الضحايا البارزين في هذا البلد الذي ترتفع فيه معدلات الجريمة بشكل كبير جدا ..وتقول الإحصائيات إن ما لا يقل عن 21 ألف شخص قتلوا في جنوب أفريقيا.. ونقلت صحيفة ذا ستار عن مصادر في الشرطة قولها أن نصل سكين وجد في عنق السيدة دكلريك عند العثور على جثتها .

وفي هذه الأثناء ناشد مانديلا مرارًا الجنوب أفريقي ترك خلافاتهم الشخصية.. والعمل معاً من أجل السلام لكن تم تجاهل دعوته على نطاق واسع.. وأدرك المؤتمر الوطني والحكومة أن أيا منهما لا يملك الدعم الكافي لفرض إرادته على جنوب أفريقيا.. لم يدع مانديلا فرصة تمر دون التحدث عن مكان الجنوب أفريقيين البيض في جنوب أفريقيا الجديدة.. أكد مرة بعد أخرى أن حكم الأغلبية لم يعنِ السيطرة على الأقلية البيضاء من قبل الغالبية السوداء.. باحثاً عن «أرضية وسط بين مخاوف البيض وآمال السود» أرسى مانديلا قواعد السلام.. «نحن لا نريد إلقاءكم في البحر» لأنه لن يكون هناك سلام ما لم يسمع الجنوب أفريقيين البيض كلماته ويصدقوها.

جاء يوم تنصيب مانديلا رئيسًا على جنوب أفريقيا ثمرة لتضحيات لا تحصى. قدمها آلاف الناس.. لا يمكن حصر مدى معاناتهم وصمودهم أو التعويض عنهما.. أحسست في ذلك اليوم كما أحسست في أيام أخرى كثيرة أنني حصيلة كل من سبقني من أولئك الأبطال الأفريقيين.. لقد ذهب ذلك الرعيل ليخلفه رعيل آخر يبدأ مني.. ولكن الذي زاد من حسرتي هو عدم قدرتي على أن أشكرهم جميعا فردًا فردًا وعدم قدرتهم على أن يروا بأعينهم ما الذي حققته تضحياتهم الرائعة .

لقد خلقت سياسة النظام العنصري جرحا غائرًا مستديمًا في كيان بلادي وشعبي.. وسنقضي. سنوات طويلة نغالب فيها ذلك الجرح وآلامه.. إن بلادي غنية بالمعادن والأحجار الكريمة المدفونة تحت ترابها.. ولكني أؤمن بأن أعظم ثروة تملكها هي أبناؤها الذين يفوقون الذهب والماس قيمة وأصالة .

لقد تعلمت معاني الشجاعة والصمود من أولئك الرجال.. لقد رأيت رجالاً كثيراً ونساء عرضوا حياتهم للخطر أو دفعوها ثمناً من أجل فكرة.. ورأيت رجالا صمدوا للتعذيب والاعتداء دون أن تفتر عزيمتهم.. وأظهروا قوة وصمودا يعجز عنه الخيال.. وتعلمت أن الشجاعة ليست هي غياب الخوف ولكنها الانتصار عليه.. لقد أحسست بالخوف مرات لا حصر لها.. ولكنني أخفيته وراء قناع من الشجاعة.. فالشجاع ليس من لا يعرف الخوف ولكن الشجاع هو من يقهر الخوف.

هذا كله لا يعني أنني أمتاز عن غيري بطهر أو عفاف أو تضحيات خاصة ولكنني أكتشفت أنني غير قادر على الاستمتاع حتى بأقل قدر من الحرية التي كنت أتمتع بها عندما علمت أن قومي ليسوا أحرارا.. إن الحرية لا تتجزأ.. فالأغلال التي تقيد واحدا منا تقيدنا جميعا.. والأغلال التي تقيد قومي هي أغلال تقيدني كذلك.

وفي تلك السنوات الحالكة الطويلة تحول لهفي على حرية قومي إلى لهف على حرية كل الناس.. البيض منهم والسود.. لقد كنت أعلم علم اليقين أن حاجة الظالم إلى الحرية أمس من حاجة المظلوم.. فالذي يسلب إنسانا حريته يصير هو نفسه أسيرا للكراهية والحقد.. يعيش وراء قضبان التعصب وضيق الأفق.. فكيف لي أن أشعر بحقيقة الحرية وقد حرمت إنسانا آخر من حريته؟ إن الظلم يسلب كلا من الظالم والمظلوم حريته.

الحرية ليست مجرد التخلص من الأغلال ولكن الحرية أن تعيش حياة تحترم فيها حرية الآخرين وتعززها.. إننا في بداية المحك الحقيقي لاختبار مدى إخلاصنا وتجردنا للحرية.

لقد سرت على طريق الحرية الطويل.. وبذلت جهدي كي لا أتداعى أو أسقط وإن تعثرت خطواتي أحياناً.. ولكنني اكتشفت سرًا يقول: إن الإنسان الحر كلما صعد جبلاً عظيمًا وجد من ورائه جبالاً أخرى يصعدها.. والآن فإنني أستريح.. ولكنها استراحة محارب أستمتع فيها بما حولي من أمجاد وألقي ببصري إلى الوراء أتأمل الطريق الذي قطعت.. استراحة المحارب قصيرة لأن للحرية تبعاتها.. ولا يسعني الانتظار لأن رحلتي طويلة لم تنته بعد.

تقاسم السلطة :

واتفق وقتها مانديلا ودكليرك على إبرام صفقات لتقاسم السلطة حتى إقامة انتخابات بموجب دستور جديد.. وتم إجراء انتخابات متعددة الأعراق تجرى في جنوب أفريقيا عام1994 في أقصى- درجات الحياد.. والنزاهة الانتخابية وأسفرت عن فوز حزب «المؤتمر الوطني الأفريقي» بأكثرية ساحقة في أول انتخابات متعددة الأعراق في بلد كان يشكل آخر قلاع التمييز العنصري.. وأصبح مانديلا في العاشر من مايو 1994 أول رئيس أسود لجنوب أفريقيا.. وذاق الملايين طعم الديمقراطية لأول مرة.. ورحب مواطنون من جميع الأعراق بنتائج التصويت ووصفوها بأنها بداية جديدة للبلاد.. وتذوق ملايين الجنوب أفريقيين من جميع الأعراق طعم الديمقراطية.. ورأوا أن نتائج الانتخابات ورئاسة مانديلا ولادة حقيقية لوطنهم.

حقيقة أن مانديلا والمؤتمر الوطني الأفريقي فازوا في جنوب أفريقيا.. العامل الحاسم في ما يسمى بالمعجزة هو أن الجنوب أفريقيين البيض قبلوا.. بطريقة أو بأخرى ولدرجات مختلفة.. هذه النتيجة وحولوها.. إن لم يكن إلى نصر فإلى شيء آخر غير الهزيمة.. بالتأكيد.

لقد كُتب الكثير عن العوامل العديدة التي دفعت العملية قدماً.. ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن القيادة – قيادة مانديلا – لعبت دورًا حاسمًا.

كيف تحققت المعجزة ..

العامل الحاسم في ما يسمى بمعجزة فوز «مانديلا » و« المؤتمر الوطني الأفريقي» في جنوب أفريقيا.. هو أن الجنوب أفريقيين البيض قبلوا.. بطريقة أو بأخرى ولدرجات مختلفة هذه النتيجة وحولوها.. إن لم يكن إلى نصر فإلى شيء آخر غير الهزيمة.. لقد كتب كثيرون عن العوامل العديدة التي ساعدت في الوصول إلى تلك النتيجة.. ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن القيادة – قيادة مانديلا – لعبت دورا حاسما.. رغم أن حريته عُرضت عليه مرات عدة إذا ما تنازل عن النضال فقط ضد نظام الفصل العنصري.. فقد كانت صفقة لا يوافق عليها إلا خائن باع وطنه.. مانديلا كان مصنوعاً من مادة أكثر صلابة ورفض تقديم تنازلات أساسية سعى الأفريقيون البيض للحصول عليها.

قرار دكليرك الإفراج عن مانديلا بدون شروط جاء تجاوبًا مع حالة التململ التي جعلت الدولة غير قابلة للحكم.. كان دكليرك يأمل أن يشرك مانديلا في عملية مطولة من التفاوض يمكن من خلالها الضغط عليه للقيام بتنازلات حيوية حاسمة.. إلا أنه وبعد العديد من الأخذ والعطاء كان دكليرك هو الذي قام بالتنازلات الأساسية وليس مانديلا.

كيف حدثت هذه التغيرات العجيبة؟ الإجابة وفقًا لمناهج العلوم السياسية هي أن دكليرك وجد نفسه على منحدر زلق حيث ظن أن كل تنازل كان الأخير الذي يحتاجه لجعل مانديلا يوافق.. إلا أن هذا التفسير لا يبرر بعد لماذا وافق دكليرك في النهاية على التنازل عن السلطة كليًا للمجلس الوطني الأفريقي خاصة أن دولة جنوب أفريقيا لم تكن على حافة الانهيار.

من الصعب دائماً النظر داخل عقلية قائد سياسي في اللحظة الحاسمة.. بغض النظر.. لا بد أن هناك تغيرا جذريا حدث في الطريقة التي رأى فيها دكليرك مانديلا. فقد أتى دكليرك إلى السلطة وهو يظن أن مانديلا كان هو الأفريقي الوحيد الذي يمكن أن يعطي التنازلات الضرورية لإبقاء جنوب أفريقيا البيضاء طافية .ولكنه أصبح يرى مانديلا بالتدريج على أنه الأفريقي الوحيد الذي يمكن أن يعطي البيض مستقبلاً يستطيعون العيش معه.

ولم يكن مانديلا يدع فرصة واحدة تمر دون التحدث عن مكان الجنوب أفريقيين البيض في جنوب أفريقيا الجديدة.. فقد أكد مرة بعد أخرى أن حكم الأغلبية لم يعنِ السيطرة على الأقلية البيضاء من قبل الغالبية السوداء.. باحثاً عن « أرضية وسط بين مخاوف البيض وآمال السود» .

أرسى مانديلا قواعد السلام . «نحن لا نريد إلقاءكم في البحر» لأنه لن يكون هناك سلام ما لم يسمع الجنوب أفريقيين البيض كلماته ويصدقوها.

قدم مانديلا في كل عبارة تقريبًا رؤيته للمستقبل يقدِّر فيها الجنوب أفريقيين البيض ويحترمهم.

هؤلاء الذين سمعوه شعروا بأنهم وعائلاتهم ومجتمعهم يمكنهم أن يحصلوا على حياة مأمونة فيما كان يصفه.. بدلاً من تقديم تنازلات قد تبرز الماضي كان مانديلا يقدم مستقبلاً إلى العديدين الذين بدأوا يشكون في أن لهم مستقبلا.

كان مانديلا نموذجًا مجسدًا للقائد الذي يصنع المعجزات التي يسعون إليها وأقنعهم بأنهم يستطيعون القيام بالتنازلات التي يقولون أنهم لا يستطيعون القيام بها له.

وكان من هذا النوع القادر على كل ذلك.. لأن أعماله المتكررة وكلماته التي لا لبس فيهاوضعت مستقبلاً يستطيع الجنوب أفريقيين البيض أن يتبنوه دونما خوف.

مانديلا رئيساً :

وخلال فترة حكمه.. شهدت جنوب أفريقيا انتقالاً كبيرا من حكم الأقلية إلى حكم الأغلبية.. ولم يخلط « مانديلا » يوماً بين آلامه الشخصية.. ومتطلبات الوضع السياسي لشعب جنوب أفريقيا .. وفي أحلك الفترات وأشدّها إيلامًا لم يعمد إلى تغذية الحقد على البيض.. إنما فرّق بينهم وبين النزعة العنصرية التي حكمت تصرفاتهم.. وفي هذا التفريق طمأنة للأعراق المختلفة التي يتألف منها شعب جنوب أفريقيا.. كما جذب مانديلا اهتمام العالم وحظي بدعم شعوب وحكومات وصل بها الأمر إلى مقاطعة الحكم العنصري في بريتوريا وعزله.. ومن هذه الحكومات بريطانيا زعيمة الكومنولث الذي تندرج فيه جنوب أفريقيا.. وهولندا الوطن الأم.. والأفريكان الذين ناضلوا من أجل الاستقلال عن بريطانيا.. لكنهم أقاموا نظاما عنصريا يفرق بشكل حاد بينهم وبين المواطنين السود.. هكذا ضغطت الأكثرية الشعبية في جنوب أفريقيا والمجتمع الدولي من أجل تفكيك النظام العنصري وإطلاق مانديلا ورفاقه من السجن من قبل.. وبعدها توجت جهودهم الدولية بالوصول إلى انتخابات حرة لا تقتصر على عرق معين..

دكلريك نائباً لمانديلا :

وكانت ميزة هذه الجمهورية أن رئيسها مانديلا حكم جنبا إلى جنب مع نائبه دكلريك الذي كان في وقت ما على رأس النظام العنصري وفي مقام الجلاد.. ونجت جنوب أفريقيا بذلك من مصير سيئ خبرته شعوب العالم الثالث بعد الاستقلال.. حين تحوّل أبطالها إلى حكام انتقاميين يتسببون في حروبٍ أهلية.. أو أزمات حادة تطحن الدول حديثة الاستقلال فتجعلها تحنّ أحياناً.. ومن باب اليأس إلى عهد الاستعمار.

قدم مانديلا رؤيته للمستقبل يقدِّر فيها الجنوب أفريقيين البيض ويحترمهم.. هؤلاء الذين سمعوه شعروا بأنهم وعائلاتهم ومجتمعهم يمكنهم أن يحصلوا على حياة مأمونة فيما كان يصفه.. بدلاً من تقديم تنازلات ونجح مانديلا في أن يقدم مستقبلاً إلى العديدين الذين بدأوا يشكون في أن لهم مستقبلا.

العجز أمام مشاكل مزمنة :

ورغم جميع مهاراته السياسية واجه مانديلا صعوبة في علاج الكثير من المشاكل الاجتماعية المزمنة في جنوب أفريقيا وكانت أبرزها مشكلة العجز الحاد في إسكان الفقراء.. واستمرار الأحياء الفقيرة.. والعشوائية في التسبب في مشكلات للمدن الكبيرة.

لكن مانديلا نجح في إقناع الشركات متعددة الجنسيات في البلاد بالبقاء والاستثمار في جنوب أفريقيا في فترة ما بعد نظام التمييز العنصري..

وفي عهده القصير كحاكم لجنوب أفريقيا أصبحت دولته هي الدولة الصناعية الأولى بالقارة- دولة ديموقراطية علمانية تستخدم أحدث وسائل العصر و تنفتح على كل مواطنيها وتساوى بينهم فى الحقوق والواجبات.

مانديلا يتنحى عن رئاسة الحزب :

وفي ديسمبر 1997 م قرر مانديلا التنحي عن رئاسة حزب « المؤتمر الوطني الأفريقي» ذلك المنصب الذي شغله مانديلا من يونيو 1991- إلى ديسمبر 1997 وذلك لخليفته الذي اختاره بنفسه ليواصل رسالته من بعده « ثابو مبيكي ».. واستشعر الجميع أن هذه الخطوة مقدمة لخطوة أكبر يمهد لها الزعيم الفذ.

لكنه استمر في شغل منصب الرئيس حتى تنحيه في صيف عام 1999 رغم اتهام البعض له بالاستبداد وحماية وزراء فاسدين وغير مؤهلين.

مانديلا يعتزل العمل العام!!

وفي عام 1999 فاجأ « نيلسون مانديلا » الرأي العام العالمي بإعلانه اعتزال العمل العام تماماً.. وابتعاده بكامل رغبته واختياره عن الوسط السياسي.. والتقاعد متفرغا لحياته الخاصة .

مبرراً ذلك باحتياجه الخاص للغوص أكثر في شؤون عائلته.. والاستمتاع بحياته الخاصة.. والقراءة.. وأنه يعتزم ترتيب جدوله المستقبلي ليكون أكثر هدوءا.. بعيداً.. ومنسحبا من المشاركات العامة التي وسمت حياته بالقلق.. والتوتر.. اللذين عانى منهما كثيرا من جراء دوامة العمل السياسي والحياة العامة .

وقال مانديلا لجمع من الأصدقاء بمقر مؤسسته الخاصة المسماة «مؤسسة نيلسون مانديلا» بجوهانسبرج أنه يعتزم عند دخوله عامه الـ 86 أن يتفرغ للقراءة والتفكير والتأمل كما يريد أن يتفرغ لإكمال الجزء الثاني من «مذكراته الشخصية».

ونقلت صحيفة الديلي تلجراف عن مانديلا قوله : أنه لا ينوي أن يختفي عن الأنظار تماماً وإنما يريد أن يكون في موقف الباحث عن الناس عندما يحتاج إلى ذلك.. وليس موقف المستقبل دائماً للآخرين.. واتصالاتهم.. ودعواتهم لحضور المناسبات الرسمية.. وأضاف في تصريحاته تلك مازحاً : «أنا سأتصل بكم لا تتصلوا بي».

وقال مانديلا : «عندما أخبرت أحد مستشاري أنني أريد أن أتقاعد قبل عدة أشهر أخبرني أنني أصلاً متقاعد.. لكن إن كان هذا تقاعداً فأريد أن أتقاعد من هذا التقاعد».

الخريف الحزين:

أعلن نيلسون مانديلا قرار انسحابه رسمياً من الحياة العامة ليعيش حياة أكثر هدوءا وقال وقتها لا تتصلوا بي.. إنما أنا الذي سأتصل بكم.. قال هذا بمزاجه المعتاد فكان بمثابة رسالة وداع.. وحتى اليوم يرفض الجميع غيابه ويتمنى الجميع رؤيته والاستماع إلى حكمته وفلسفته ولكنه أصر على الغياب ولم يعد يستقبل رؤساء دول أو رؤساء حكومات أو قادة.. ومع صدور كتابه استطاع أحد الكتاب العالميين تجمعه صداقة خاصة بمانديلا.. وهو « جاك لانج » الذي شغل منصب وزير الثقافة الفرنسي الفوز بالمقابلة التي يتمناها الكثيرون ويقول عن صديقه العجوز: أحب نبل خلقه وأناقته وتفهمه لمعني الكرامة.. إنه مناضل كبير وعنيد للحرية وعندما تولي الحكم عرف كيف يصبح مبدعاً وخلاقا لمجتمع جديد.

وأكثر ما يتمسك به مانديلا هو استمتاعه بمشاهدة غروب الشمس وهو يستمع إلى موسيقي هاندل أو تشايكوفسكي إنه يعوض نفسه بما افتقده طوال 27 سنة عاشها وراء القضبان في زنزانته حيث حرم من الموسيقى ومن كافة الأحاسيس الجميلة.

وعلى كل إن خريف نيلسون مانديلا ليس بالخريف الحزين.. صحيح أنه يشكو من آلام في الركبة ولكنه يبدو سعيدا لوجود زوجته جراسا بجانبه وسهرها على راحته وتشعر زوجته بالفخر والسعادة لأنها نجحت في أن يعيش حياته الطبيعية بعد خروجه من السجن فأنقذته من الوحدة واليأس.. وهي أيضاً مناضلة مثابرة من أجل قضايا الأطفال وبفضل حبها الكبير قال مانديلا في أحد الأيام : وأنا في سن متقدمة.. أشعر بأني أتفتح مثل الوردة .

والمناضل العجوز يخرج أحياناً من صمته للتنديد بسياسة تخص الصحة العامة أو معارضة التدخل الأمريكي في العراق..

ويدور الحوار بين الصديقين.. من طرف وزير الثقافة الفرنسي السابق ومن طرف آخر الزعيم الأفريقي..

ـ كيف ترى الحياة الآن.. وأنت لا سجين ولا رئيس البلاد؟

إن للحياة تجاربها.. والأجمل أن يراها الإنسان وهو متقاعد حيث يستطيع يوميا اتخاذ القرار بما يريد أن يفعله وعلى أي قضية يريد أن يركز اهتمامه وذلك بدون قيود تمليه برنامج عمل محدد..

من عدة شهور أعلنت على الجميع أن يتركوك تعيش في سلام لأنك ترغب في الحياة بهدوء مع أسرتك وأصدقائك.. فهل قبل الآخرون هذه الرغبة؟

لازلت أشعر بأني أعمل كثيرا وهذا لأن في جنوب أفريقيا خاصة وفي أفريقيا عامة التحديات التي واجهناها لاتزال قائمة وهائلة أحاول إيجاد الحلول من خلال الهيئات الخيرية التي أرعاها.

ما هي أهم قضية في حياتك الجديدة؟

طوال حياتي أعلنت مرارا أنه لا يمكن توفر الراحة طالما أن ظلم الماضي لم يعالج بعد.. وحاليا تواجه أفريقيا أزمة جديدة.. إنها أزمة مرض الإيدز وواجبنا نحن البشر أن نتصدي لهذه القضية على محوري الوقاية والعلاج وهناك قضية أخرى تشغلني وهي محاربة الفقر وعلينا أن نتكاتف جميعا للقضاء عليه.. وأخيرا إن مستقبل أي دولة يقوم ويتوقف على تعليم الشباب والنهوض بهم.. إنهم عماد المجتمع وبالتالي ندعم الحكومة للتأكد من أن جميع شبابنا لهم الحق في تعليم أساسي.

ماذا تقول لهؤلاء الشباب الذين يعانون من البطالة وفقدوا إيمانهم بكل شيء..؟ كيف يتجدد أملهم؟

لا يمكن تحقيق النجاح بدون عمل شاق وجهد متواصل واليوم فإن الحصول على شهادة تعليم عال لم تعد تكفي لاكتساب المقومات الضرورية في المجتمع وعلى الشباب أن يواصلوا الدراسة والتعليم والتدريب للحصول على شهادة عليا ثانية وثالثة..

ـ ما هي رسالتك للعالم؟

الاهتمام بالشباب ورعايتهم..

ـ هل تواظب على متابعة أحداث العالم؟

نعم.. أواصل قراءة الصحف اليومية وفي المساء أشاهد نشرات الأخبار.. من المهم جدا التعايش مع ما يحدث في العالم.

ـ كيف تستقبل حب العالم أجمع لك واهتمامه بك؟.. هل هذا يضايقك أحيانا؟

لا.. على العكس أقدر مجاملات الآخرين لي.. ولكن هذا لا ينسيني أبدا مدى اتساع دائرة القضايا التي تواجهنا.

بتوحيدك لشعب مزقته التفرقة العنصرية أعطيت للعالم درسا في السلام فما هو رأيك في تصادم الديانات والحضارات المشتعل في عدة مناطق من العالم؟

إن التاريخ علمنا بأنه من المحال تحقيق السلام باستخدام الأسلحة واللجوء إلى العنف.. لابد من الحوار وعن طريق الحوار استطعنا في جنوب أفريقيا أن نتغلب على التفرقة العنصرية.. لقد أدركنا نحن مع أعدائنا أن الطريق الوحيد للوصول إلى حل لابد أن يمر من خلال مفاوضات سلمية.. وإذا لم يتفهم الجميع هذه الوسيلة فلن يتحقق السلام أبدا ولن يستطيع أحد تسوية الخلافات.

ـ هل يمكن المغفرة لعدو الأمس..؟

بالطبع نعم.. وألتقى أحيانا بفريدريك دي كليرك ومبدئي دائماً لننسى الماضي إذ لا جدوي من تأجيج الضغينة ضد الآخرين ومن أجل التوصل إلى مجابهة تحديات بلادنا نحتاج إلى تضافر كل الجهود ومساعدة الجميع مهما كان ماضيهم.. إن صداقة طيبة تجمع بيني وبين دكلريك وأنا معجب به لأنه كان عنصرا أساسيا في تحقيق أهدافنا والتوصل إلى حل سلمي في جنوب أفريقيا.. إنه رجل حكيم وبعيد النظر.. **نفهم إذن أن حلمك بتكوين شعب «قوس قزح» قد تحقق بالكامل في جنوب أفريقيا** (□).

الحقيقة أنه ليس حلمي وإنما حلم «ديزموند توتو» أسقف جنوب أفريقيا نعم إنها صورة جميلة جدا.. وأعترف أننا فعلا شعب «قوس قزح» إن جنوب أفريقيا يتكون من مجموعات شديدة الاختلاف.. وقد نجحنا في أن نتفهم وندرك أنها تمثل كل الأوجه المختلفة لأمة واحدة.. واليوم فإن هذه الصورة مقبولة من الجميع.

وكان مانديلا بعد تقاعده.. وتنازله عن رئاسة جنوب أفريقيا عام 1999م قد أخذ على عاتقه متطوعاً متابعة عمل الجمعيات والحركات المنادية بحقوق الإنسان حول العالم.. و أصبح مانديلا أحد أكثر الشخصيات الخطابية الممتعة في العالم .. ورغم أن آثار التعب ومعالم التقدم في العمر ظهرت معالمها على مانديلا الذي يمشي بعصا أحياناً وبمساعدة من حوله أحياناً إلا أن عقله مازال يعمل بعمق وفطنته وحنكته ما تزال تلازمه لدرجة أنه مازال له تأثير قوي وجسيم وواضح على الحكومة الحالية وعلى الكثير في المجتمع الجنوب أفريقي.

وتلقى نيلسون مانديلا عددا كبيراً من الميداليات والتكريمات من رؤساء وزعماء دول العالم.. و كان له كذلك عدد من الآراء المثيرة للجدل في الغرب مثل آرائه في القضية الفلسطينية ومعارضته للسياسات الخارجية للرئيس الأمريكي جورج بوش.. وغيرها.. في يونيو 2004م قرر نيلسون مانديلا ذو الـ 85 عاماً التقاعد وترك الحياة العامة.. ذلك أن صحته أصبحت لا تسمح بالتحرك والانتقال.. كما أنه فضل أن يقضي ما تبقى من عمره بين عائلته.

(1) الحائز على جائزة نوبل للسلام سنة 1981.

وبعد تقاعده تابع مانديلا تحرّكه مع الجمعيات والحركات المنادية بحقوق الإنسان حول العالم .

ورغم أن مانديلا لم يعد محسوباً على الوسط الدبلوماسي بابتعاده عن رئاسة بلاده.. إلا أنه في زياراته لكل دول العالم ما زال موضع احتفاء الجميع.. وما زال رغم ضعف صحته يقوم بالعديد من الوساطات الدولية بين العديد من دول العالم مستخدماً مكانته الفريدة.. ومهاراته السياسية الطبيعية.. والمكتسبة مما مرَ به من تجارب على الساحة الدولية .

فقد قام مانديلا بدور الوسيط في إقناع الزعيم الليبي معمر القذافي.. بتسليم مواطنين ليبيين للمحاكمة في القضية الشهيرة الخاصة بتفجير إحدى الطائرات فوق بلدة لوكيربي الإسكتلندية ..وكانت هذه القضية قد أثارت موجات كبيرة من ردود الأفعال العالمية.. الغاضبة.. وانتهت بليبيا إلى سنوات من الحظر الجوي.. والاقتصادي لرفضها تسليم رعاياها المتهمين في القضية.. وفيما بعد تم تبرئة أحدهما.. وإدانة الآخر.. وكانت الحادثة قد وقعت عام 1988 وأسفرت عن مصرع 270 شخصا حيث انفجرت طائرة تابعة لشركة بان أمريكان فوق مدينة لوكيربى الإسكتلندية يوم 21 ديسمبر من عام 1988 وبعد المحاكمة التي أسفرت عن إدانة أحد الرجلين المتهمين ويدعى « عبد الباسط على محمد المقراحى».. وبعد الحكم عليه في القضية زاره مانديلا في سجنه بإسكتلندا.. وكانت محكمة الاستئناف الإسكتلندية والهولندية قد حكمتا على الليبى المتهم بارتكاب تفجير لوكيربى بالسجن مدى الحياة .

وأعلنت محكمة الاستئناف الحكم بعد كشف المزيد من الأدلة.. كان قد حكم على المدعى عليه بالسجن مدى الحياة يوم 31 يناير من عام 2001م .. واعتبر فريق الدفاع الحكم ظالما وطالب بإحالة القضية إلى محكمة الاستئناف.

وناشد مانديلا الرئيس الأمريكي جورج بوش في أغسطس 2002 بعدم اتخاذ إجراء من جانب واحد ضد الزعيم العراقي صدام حسين.

ورغم تقدمه في السن إلا أن جدول أعمال مانديلا ما زال مشحونًا وقاد حملة بلاده الناجحة لاستضافة بلاده نهائيات كأس العالم لكرة القدم التي أقيمت عام 2010م .. والدعوة للحصول على مساعدة دولية في جهود جنوب أفريقيا لمكافحة انتشار مرض الإيدز ومرض السل.

تأسيس مؤسسة نيلسون مانديلا بدأ أعضاء « هيئة الكبار » فى مؤسسة مانديلا.. تلك الهيئة التي تضم قادة ونشطاء سابقين يتمتعون بالنفوذ والحكمة ، والتي أنشأها مانديلا فى شهر يوليو 2007م بغرض التعامل مع أهم القضايا الدولية الأكثر صعوبة.. والتوسط بين أطرافها لحلها.. زيارة للسودان لتكون دارفور هى أول مهمة يتصدون لها.. ويتألف الفريق الزائر من الأسقف الجنوب أفريقي ديزموند توتو والرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر والناشطة الموزمبيقية جراسا ماشيل والمبعوث الخاص السابق للأمم المتحدة للعراق الأخضر الإبراهيمي.. يشار إلى أن توتو وكارتر من الحائزين على جائزة نوبل للسلام.. وقال توتو في بيان ليست هذه مجرد رحلة سريعة يقوم بها (الكبار) إننا نريد أن تنتهي المعاناة ونأمل أن نساعد في تحقيق ذلك.

والتقى الكبار فى الخرطوم مع ممثلين عن حكومة الرئيس عمر البشير وجماعات التمرد قبل الذهاب إلى دارفور للقاء زعماء القبائل والضحايا الذين يسكنون معسكرات بسبب نزوحهم عن ديارهم.

مانديلا رسام :

وفي شهر أكتوبر من عام 2002 م أقيم في لندن معرض يضم لوحات تخطيطية رسمها نيلسون مانديلا الذي كان وقتها قد تجاوز عامل الـ (84 عاما) بشهور قليلة.. وتحمل رؤيته للسنوات الطويلة التي قضاها في المعتقل.

اللوحات مرسومة بالفحم والطباشير.. وتعكس غرام « مانديلا » بهوايته القديمة كرسام.. كما أنه دخل هذه التجربة على أمل أن يساعده العائد المادي المنتظر منها في تعزيز الموارد المالية لـ «صندوق الأطفال» التابع لمؤسسته الخيرية والتي تقدم يد العون للأطفال من اليتامي.. ممن يعانون من فيروس نقص المناعة (HIV) في جنوب أفريقيا .

يتضمن المعرض مناظر من معتقل جزيرة روبن القريب من مدينة كيب تاون.. عاصمة جنوب أفريقيا.. حيث قضي مانديلا هناك 18 عاماً من عقوبة السجن التي تجاوزت 27 عاماً.. وبعد إطلاق سراحه في فبراير 1990 م ثم ابتعاده.. واعتزاله العمل العام.. كان كثيراً ما يعود نيلسون مانديلا من جديد إلى الجزيرة ليرسم الاسكتشات.. واللوحات الفنية .

حكايتي الأفريقية :

ولم يكتف مانديلا بإعادة تقديم نفسه للعالم باعتباره رساماً فقط.. بل فوجئ الجميع في نهايات عام 2007م بقيامه بتأليف كتاب خاص اسم «حكاياتي الأفريقية» عن أفريقيا للأطفال.. قام فيه نيلسون مانديلا بتجميع 32 قصة شعبية أفريقية ونشرها في الكتاب مصحوبة برسوم لفنانين أفارقة.. ويقول مانديلا في مقدمة الكتاب الذي تولت نشره دار النشر الأسبانية « سيرويلا » والموجه إلى القراء فوق عمر الثمانية : إن نشر هذا الكتاب يأتي حتى «لا يموت صوت راوي القصص في أفريقيا » و«لا يفقد الأطفال أبدا القدرة على توسيع آفاقهم بالعالم بسحر قصصهم».

وجمع مانديلا هذه القصص من 19 كاتبا من أجيال مختلفة.. والهدف من ورائه نشر التعاليم الأخلاقية العالمية من خلال عناصر من الفولكلور الأفريقي.. ويقول مانديلا عن كتابه «هي مجموعة قصص جميلة ذات دلائل صغيرة على قيمة أفريقيا الكبيرة.. وهي أيضاً عالمية في الكثير من الأحيان بسبب الصورة التي تقدمها عن الإنسانية والحيوانات»..

ومن بين أبطال القصص هناك «أرانب عبقرية» وأسود وثعابين وأشخاص يتحولون إلى حيوانات وآكلي لحوم البشر.

ومع سيطرة الطابع الحي والتنوع الكبير على القصص يضفي 16 فنانا أفريقيا الضوء والألوان على القصص من خلال رسوماتهم التي تعبر عن الفن التقليدي الأفريقي والتأثر بالقصص المصورة.

ويتضمن الكتاب بالإضافة إلى القصص والرسومات معجماً للأصوات ذات الأصل الأفريقي وخريطة لقارة أفريقيا مع منشأ كل قصة وسيرة ذاتية جانبية للكتاب والفنانين الذين أعاد مانديلا إنتاج أعمالهم.

الكتابة تطهير الذات :

ولم تكن تلك المحاولة السابقة هي الأولى بالنسبة للزعيم الأفريقي في مجال الكتابة.. فبعيدا عن الإثارة والرغبة في الكسب السريع.. وبمنحى آخر غير تدوين الاعترافات وتصفية الحسابات مع النفس والغير.. أو تطهير الذات من شرورها وإبراء الذمة أمام التاريخ أو أمام الله تأتي السيرة الذاتية لزعيم الجنوب الأفريقي الأشهر نيلسون مانديلا.. لتروي قصة كفاحه ضد نظام الأبارتيد العنصري وسعيه الدؤوب لإقرار نظام أكثر عدلاً.. فسيرته كما نقرؤها ليست اعترافية.. والذات ليست محورها فهي ترتكز على الحدث.. خصوصا وأن مانديلا أصبح رمزا تمتلكه البشرية جمعاء.. لذلك يستبعد أن تكون سيرته محاولة منه لاستباق التاريخ والمؤرخين بكتابة سيرته الذاتية حتى لا يترك لأقلام الآخرين حرية تسجيل الكلمة الفاصلة عنه خوفا من التشويه أو سوء الفهم.

مانديلا.. وقضايا العالم العربي :

نيلسون مانديلا ليس مجرد أسطورة.. ولكنه قوة هائلة قادت حركة إنسانية غيرت وجه التاريخ الحديث.. يتمتع بميزات خارقة.. يتمتع بإرادة سياسية.. وشخصية قيادية فذة شكلت ملامح أسطورته .. نتيجة الإصرار على العدل والحرية والمساواة في كفاح استمر لأكثر من ثلاثمائة سنة.. ضد نظام أنكر أبسط حقوق الإنسان.. واتسم بالشراسة والاضطهاد والعنصرية السافرة.

ولعل المغزى من هذا المنهاج في التعامل مع نيلسون مانديلا.. هو دحض بعض الأطروحات.. التي لا يخلو بعضها من غرض.. والتي تحاول وضع شخصية نيلسون مانديلا في قفص الشخصية الأسطورية الخارقة وفصلها عن جذورها ومكوناتها الاجتماعية والسياسية وبالتالي الإيحاء الخفي للناس بأن الرجل لا يعدو كونه فلتة من فلتات التاريخ العارضة.. وهدم الجسور التي تربط حركة الكفاح الذي قاده الرجل لينتهي الأمر في أفريقيا وغيرها للاحتفاء ببطل أسطوري.. دونما جني الثمار المترتبة على كفاحه بالتغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المنشود.. وهذا النهج الواعي في دراسة نيلسون مانديلا.. يؤكد الصلة العضوية بين الرجل وأصوله وكفاحه.. والتذكير بأن الجدوى من هذا الكفاح أن تتوالي أجيال من حاملي هذه الشعلة لتحقيق الأهداف التي ضحي من أجلها مانديلا ورفاقه.. ويكفي للمرء أن يذكر في هذا السياق أن مانديلا هو كوكب وضاء في عقد فريد من المناضلين الذين لا يمكن حصرهم.. خرجوا جميعا من رحم مدرسة الكفاح الوطني الأفريقي ضد العنصرية المؤسسية.. ومن قادة هؤلاء ثلاثة حصلوا على جائزة نوبل للسلام(ألبرت لوتولي.. ديزموند توتو.. ونيلسون مانديلا)..

وغدا « نيلسون مانديلا » ليس حكراً لجنوب أفريقيا أو حتى لأفريقيا كلها.. وإنما هو قوة دافعة ومحركة للتاريخ البشري بالقيم السامية في تجسيد الحرية والعدل والمساواة وانتزاع الحقوق المهضومة.. بل ذهب محاوري مانديلا هذا.. وأنا معه.. إلى أن خروج نيلسون مانديلا من السجن في فبراير عام1990 يمثل زلزالا في حركة التاريخ السياسي.. هو في مصاف الزلزال الذي أحدثه سقوط الباستيل وبزوغ الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر الميلادي..!

فأين « نيلسون مانديلا »من الوجدان والفكر السياسي العربي..؟ ومبعث هذا السؤال.. ذلك الترابط التاريخي بين حركة الكفاح ضد الاستعمار والعنصرية في أنحاء مختلفة في أفريقيا والعالم العربي.. الأمر الذي يرتب على المثقفين الأفارقة والمثقفين في العالم العربي عبئا مشتركا للتواصل المستمر من أجل الخروج من إسار الصور النمطية السلبية التي تشيع التفكك والإحباط بين هذه الشعوب ذات التاريخ العريق والحاضر المتداخل والمستقبل المتشابك المصالح.. وهذا المنحى - في رأينا - لابد له أن يأخذ بعين الاعتبار التمسك بمفاتيح العصر في التقدم التكنولوجي والثورة المعلوماتية وحركة الموارد البشرية وتسخير الموارد لتقدم الشعوب ورخائها.. وكذلك إرساء قواعد السلطة الديمقراطية وحقوق الإنسان والتداول السلمي للسلطة.

من هنا يمكن للمرء أن يمعن النظر في حقيقة أن العالم العربي لابد له أن يترجم قيم الكفاح المشترك مع حركة التحرر والتنمية في أفريقيا من خلال تفعيل هذا المنهج الذي تجسده المبادئ الماندلية إذا جاز لنا هذا التعبير..! وبهذا يتسنى لنا أن نعب من البحر الزاخر بقوي الدفع الهائلة التي صاغها هذا العملاق الذي بلغ من العمر خمسة وثمانين عاما.. ومازال يجزل العطاء لشعبه ولقارته دون كلل أو ملل.. ولا شك أن نيلسون مانديلا الآن.. في كفاحه المستمر ضد التخلف وضد الإجحاف في شروط التجارة الدولية.. وضد مرض الإيدز.. وضد الحالة الذهنية المستصغرة للنفس.. المنبهرة بالغير.. إنما يشارك بوعي كبير في العمل على صياغة التاريخ المعاصر فيما يبدو للبعض بأنه سباحة ضد التيار.. وهو بالطبع ليس كذلك.. ويبدو لي أن مانديلا يريد أن يقول لنا بأن قوة الفعل المؤثر في التاريخ ليست مقصورة على مقاعد السلطة.. بل إنها تأتي من ثقل القوة الدافعة لالتزام يتعدي نطاق تلك المقاعد!! ولهذا فإننا نشاهد حركته الدائبة.. وصوته المسموع الذي يقود حركة غير حكومية.. وغير مسبوقة في التاريخ الأفريقي المعاصر.

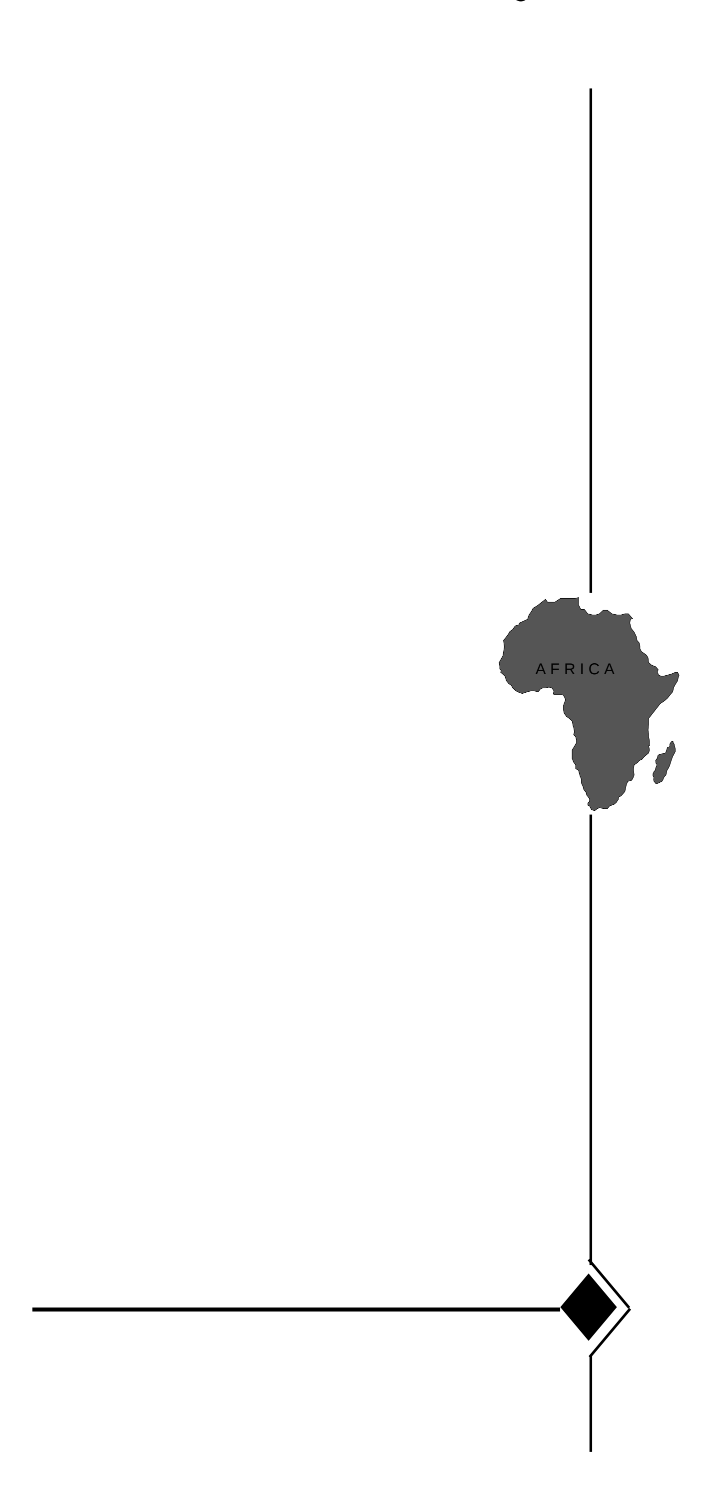
بهذا المنظور يمكن للمرء أن يستشعر صلة مع قيادات الحركة الفكرية والثقافية العربية التي يحق عليها أن تتعامل مع نيلسون مانديلا وحركته في التاريخ.. ليس من موقع الاحتفاء العابر في بعض المناسبات.. ولكن مع موقع التفاعل المؤصل مع هذه الحركة.. ووضعها في مكانها المناسب في التصور والمفهوم العربيين لمعنى ودور الإرادة في تغيير حرك التاريخ.. وهكذا يصبح من المشروع فكرا وممارسة أن يتطلع الإنسان إلى نيلسون مانديلا منتشرا في مناهج التعليم.. وحاضرا في الدوائر الأكاديمية العربية .. كمفكر سياسي.. وممارس جسور ذكي.. وكطاقة بشرية تجسد الانتصار على معوقات حركة التاريخ في الحرية والمساواة وصيانة الحقوق.. ليس هذا وحده.. بل أبعد من ذلك بالتأكيد على ضرورة النظر إلى نيلسون مانديلا بوصفه مستودعا ديناميكيا زاخرا بقيم معالجات الكثير من قضايا المستقبل.. وهذا لفائدة الممارسين السياسيين.. من خلال تذكيرهم بأن فن الممكن في السياسة لا يعترف بالحدود التي تشيع ثقافة الخنوع وتحاول الحد من الطموح المشروع.. وعلاوة على ذلك يمكن القول أن قدرة مانديلا في تجسيد المفاهيم السامية في العدالة والحرية ربطت بين النظر والعمل في معادلة عضوية الارتباط.

وهكذا عندما قال الرجل قولته الشهيرة إن الحرية لا تقبل التجزئة.. لأن القيود التي تكبل شخصا واحداً في بلادي إنما هي قيود تكبل أبناء وطني أجمعين!! فإنه كان يذكرنا بجدوى هذا الربط العضوي بين الفكر والممارسة.. وكانت النتيجة المحتفي بها أن قوى الظلام إذا ما نجحت في اضطهاد بعض الناس في بعض الوقت.. إلا أنها عاجزة في اضطهاد كل الناس في كل الوقت!!

من المدهش في تراث مانديلا وكفاحه المستمر حتى اليوم أن معاناته الشخصية الطويلة لم تملأ نفسه بالأحقاد أو بالشعور بغريزة الانتقام! وعلى العكس فإنه قال عندما خرجت من السجن كنت أعلن أن مهمتي أن أعمل على تحرير ضحايا الاضطهاد وتحرير الذين يقومون باضطهادهم على حد سواء.. وزاد مانديلا على ذلك قائلا: لقد علمني مشواري الطويل على درب الحرية بأن النجاح في التسلق إلى قمة جبل ما.. يكشف للمرء أن المزيد من هذه القمم في انتظاره كيما يتسلقها.. وهكذا دواليك.. قيمة أخرى يجسدها العملاق نيلسون مانديلا وهي مهمة في هذا السياق.. وتلك قيمة التواضع الجم الذي يفصح عن ثقة هائلة بالنفس تفرض على الآخرين احترام الرجل واحترام ما يمثله من مبادئ وقضايا.. وأذكر أنني صافحت الرجل مرتين.. في لقاءين عابرين ولعل تجربة القرب من هذا العملاق هي مزيج من الشعور بلقاء قوة دفع هائلة تصنع التاريخ.. والشعور بتواضع مفعم بالشموخ والكبرياء في وقت واحد!

خاتمة

مانديلا.. التجربة والحياة



تحول نيلسون مانديلا لأسطورة تاريخية.. ورمز عالمي.. الجميع بيض وسود.. من مشارق الأرض لمغاربها يتلمسون أخباره.. ويتابعون مواقفه من آنٍ لآخر.. لكن يبقى سؤال هام.. وهو : هل نال نيلسون مانديلا إعجاب العالم لأنه طالب بحقوق السود فقط ؟ أم لأنه طالب بإلغاء العنصرية والتمييز في بلده وأصر على مبدأ المساواة؟ هل انجر نيلسون مانديلا لدعوات المتطرفين الأفارقة بالتمييز ضد البيض أو إخراجهم من البلاد أو حرمانهم من المناصب أو الحقوق لأنهم كانوا راضين بالنظام العنصري الذي فضلهم على الآخرين.. أم أنه أصر على إشراك البيض في الحكم بل وبنسبة لا تتلاءم مع حجمهم السكاني في البلاد؟ لقد تصورنا أن سكان جنوب أفريقيا البيض سوف يغادرون البلاد بعد تسلم السود السلطة.. إلا أنهم بقوا هناك ولم يتزحزحوا بل قال لي أحدهم قبل فترة إن أوضاعهم المعاشية تحسنت أضعافا مضاعفة عما كانت عليه سابقا وإنهم لا يزالون يقودون البلاد اقتصاديا ويساهمون في تقدمها.

السيرة الذاتية لنيلسون مانديلا.. تروي قصة كفاحه ضد النظام العنصري وسعيه الدؤوب لإقرار نظام أكثر عدلا.

تلك السيرة التي صدرت في أصلها الإنجليزي تحت عنوان مشوار طويل نحو الحرية عام 1994 [9] تستدعي.. التساؤل عن مقصد مانديلا من نشر سيرته ولم تمض أشهر على توليه السلطة.

فسيرته كما نقرؤها ليست اعترافية.. والذات ليست محورها فهي ترتكز على الحدث.. خصوصاً وأن مانديلا أصبح رمزاً إنسانياً عاماً.. لذلك يستبعد أن تكون سيرته محاولة منه لاستباق التاريخ والمؤرخين بكتابة سيرته الذاتية حتى لا يترك لأقلام الآخرين حرية تسجيل الكلمة الفاصلة عنه خوفا من التشويه أو سوء الفهم.

---

(1) صدرت عن دار براون للنشر .. ترجمتها للعربية وأعادت إصدارها الدكتورة فاطمة نصر عن دار سطور للنشر .

في سياق سرده للأحداث يذكر مانديلا أنه أثناء وجوده في المعتقل اقترح زملاؤه عليه كتابة مذكراته احتفاء ببلوغه الستين على أن يتم تهريبها خارج السجن والبلاد لنشرها كي تعمل على إذكاء شعلة المقاومة التي كانت قد خفتت آنذاك. ونجح مانديلا وزملاؤه فيما اعتزموه. غير أن تلك المذكرات لم يكتب لها أن ترى النور.

يقول مانديلا: إن تلك المذكرات هي العمود الفقري لسيرتها التي نعرض لها الآن.. والتى نهدف من ورائها لتبيان وترسيخ وتبرير سياسته التوفيقية التي التزم بها واتبعها. وتلك السياسة ليست وليدة الساعة.. وليست مسايرة للظروف والمتغيرات.. لكنها تنبع من عقيدة التزم بها المؤتمر منذ نشأته واعتنقها مانديلا فكرًا عقلانيًا وأساسًا واقعيًا لكفاحه منذ بداية تسييسه.. كما عمقتها التجربة وقوى التزامه بها نضج الفكر وشمولية تجربته الإنسانية.

وقد قدمت تجربة «مانديلا» للعالم تحديين اثنين.. أولاً.. كيف نجد الشخص.. الذي يقدر ما نفعل ثانياً.. وهو الأهم.. كيف نستطيع أن نصبح الأشخاص الذي يمكن للطرف الآخر تقديم تنازلات لهم يقولون أنهم لا يستطيعون تقديمها.. الأمران مهمّان ولكن الأمر الثاني حاسم في وقت يقف فيه كل من الطرفين إلى الوراء منتظراً من الآخر القيام بالأعمال الصعبة الضرورية لدفع عملية السلام إلى الأمام.

وعلى سبيل المثال ذكرت الصحف الجنوب أفريقية أن مزايدا مجهولا دفع 193 ألفا و494 راند [(10)] (27 ألفا و484 دولارا) في مزاد خيري لنيل شرف احتساء الشاي مع نيلسون مانديلا.. وجمع المزاد الذي جرى عن طريق موقع إلكتروني للمزادات على الإنترنت 718 ألف راند لعدة مؤسسات خيرية في جنوب أفريقيا عن طريق عرض قضاء أوقات مع شخصيات محلية ودولية بارزة ..وسجل عرض تناول الشاي مع مانديلا أعلى سعر في المزاد

(1) العملة الوطنية لجنوب أفريقيا .

وجاء في المرتبة الثانية القيام برحلة سفاري مع رجل الأعمال الملياردير البريطاني « ريتشارد برانسون » الذي دفع مزايد مبلغ 150 ألفا و654 راندا للفوز بها..ودفع مزايد 54 ألفا و264 راندا للفوز بفرصة لتناول الغداء مع شخصية جنوب أفريقية أخرى محبوبة مناهضة لسياسة الفصل العنصري وهو كبير الأساقفة ديزموند توتو ..ووصل عدد العروض المباعة في المزاد إلى 29 عرضا بهدف جمع أموال لمنظمة تراست الخيرية للأطفال في جنوب أفريقيا ولمركز وولتر سيسولو لمرضى القلب من الأطفال.

سفير الضمير:

قررت منظمة العفو الدولية منح رئيس جنوب أفريقيا السابق نيلسون مانديلا جائزة «سفير الضمير» التي تمثل رفع تكريم تمنحه المنظمة العالمية المعنية بحقوق الإنسان..

وقالت المنظمة إنها تمنح مانديلا الجائزة تقديرًا لنضاله دون خوف من أجل الحرية والعدل في العالم فضلا عن دفاعه عن حقوق الملايين من المصابين بفيروس الإيدز في أفريقيا وخارجها..

وقالت أيرين خان الأمين العام للمنظمة في بيان إن مانديلا هو في واقع الأمر من أسبغ على المنظمة شرفا عظيما بقبوله هذه الجائزة..

كما تلقى « مانديلا » عددًا كبيرًا من الميداليات.. والأوسمة.. والنياشين.. وحفلات التكريم من رؤساء وزعماء دول العالم.. حتى إن الرئيس الفرنسي «نيكولاي ساركوزي » حرص على أن يستقبله بنفسه في مطار أورلي بالعاصمة الفرنسية باريس عند قيامه بزيارة خاصة لباريس باعتباره رمزاً يجسد نضال شعب برمته وتجاوز تحركه حدود جنوب أفريقيا إلى حد بعيد..

وقامت كندا ـ ولأول مرة ـ بمنح من هو غير كندى الجنسية الكندية– تقديرًا لدوره المشرف فى تحرير أرضه وشعبه ومعاناته الطويلة فى مواجهة العنصرية والاستيطان اللا آدميين..

سفير النوايا الحسنة :

وفي 2005 اختارته الأمم المتحدة سفيراً للنوايا الحسنة.. فقد منحت منظمة العمل الدولية جائزتها السنوية الأولى للأبحاث في مجال العمل الكريم واللائق لرئيس جنوب أفريقيا السابق نيلسون مانديلا وللخبير في الأمن الاجتماعي كارميللو ميسا ليجو تكريمًا لمساهماتهما في تحسين حياة البشر بمختلف أنحاء العالم.. وفي رسالة مسجلة أمام المؤتمر الدولي للمنظمة أبدى مانديلا شكره للدعم الذي تلقاه من منظمة العمل الدولية أثناء فترة سجنه إبان نظام الفصل العنصري في بلاده.. وأضاف :«اليوم تواصل منظمة العمل الدولية تعزيز القيم المشتركة والحقوق التي يتعين على الجميع احترامها والمبدأ الذي يفيد بأنه لا يمكن تحقيق التقدم إلا عن طريق الحوار الحقيقي..» .

وقال مانديلا : إن العمل الكريم لا يشمل فقط الحق في البقاء ولكن في الرخاء والتقدم وعيش حياة كريمة.. وأكد أهمية جهود منظمة العمل الدولية لجعل العمل الكريم حقيقة يتمتع بها الجميع في أنحاء العالم..

كرّمت بريطانيا نيلسون مانديلا.. وأقامت له تمثالاً خاصاً أمام البرلمان البريطاني في لندن.. وقد أزيح الستار عن التمثال في العاصمة البريطانية « لندن » في أول سبتمبر عام 2007 بحضور مانديلا ورئيس الوزراء البريطاني السابق جوردن براون .

أمنيته التي تحققت :

وقد أنجز النحات البريطاني « يان وولترز » تمثالاً لمانديلا.. وأقيم التمثال إلى جانب نصب رئيسي الوزراء البريطانيين الأسبقين « ونستون تشرشل ».. و«بنجامين ديسرايلي ».. والرئيس الأميركي « أبراهام لنكولن ».. كما يوجد أيضاً إلى جانب هذه النصب تمثال لرئيس الوزراء السابق «جان سموتس ».. وحضره حشد كبير.. وقد تحدث رئيس الوزراء البريطاني جوردون براون في الحفل قائلاً:

« لقد غادر مانديلا هذه البلاد مطاردًا.. وعاد إليها رئيسًا.. وقاد جنوب أفريقيا بعيداً عن النظام الديكتاتوري العنصري وولد نظامٌ تعدديُ ديمقراطيُ على يده»..

أما مانديلا الذي راوده هذا الحلم منذ 40 عاماً بأن يُنصب له تمثال في إحدى ساحات لندن قال يوم تحقق حلمه و الابتسامة لا تفارق محياه:

« إن هذا التمثال يشكل بداية للأمل إنه ينقل عبر العالم رسائل تحمل مضامين قوية بأن الظلم لن يسود إلى ما لا نهاية والمعاناة من أجل الحرية لن تكون من دون جدوى وفجر الحرية سوف يشرق ويصبح حقيقة..».

وأشار في كلمته أنه ما زال يتذكر زيارة له إلى لندن مع رفيقه في النضال أوليفر تامبو.. وروى أنهما قالا آنذاك مازحين: إنه ربما سيرتفع يوماً تمثال لهما بالقرب من تمثال جان سموتس..

جائزة الحكم الرشيد:

هي جائزة خاصة مستحدثة.. تولى إنشاءها رجل أعمال سوداني يدعى « محمد فتحي إبراهيم «مو »[1].

قيمة الجائزة 5 ملايين دولار - 3 أضعاف جائزة نوبل - تصرف على مدى 10 سنوات.. وراتب سنوي تبلغ قيمته 200 ألف دولار مدى الحياة.. ويتلقى الفائز 200 ألف دولار سنوياً على مدى 10 سنوات لتمويل أنشطة ذات فائدة عامة وقضايا عادلة.

والهدف من إنشاء الجائزة هو تحفيز القادة الأفارقة إلى تحقيق نتائج أفضل «لتأثيرهم الكبير على سير السياسات في بلدانهم» على اعتبار أن فساد الحكم والتسلط يطيحان بأي جهود للتنمية..

ولأن الشروط لا تنطبق على الزعيم مانديلا الذي ترك منصبه قبل إطلاق الجائزة.. فقد تقرر منحه الجائزة بصورة شرفية.. اللجنة التي تشرف على الجائزة يترأسها « كوفي أنان » أمين عام الأمم المتحدة السابق ..

---

(1) وهو من مواليد السودان عام 1946.. درس الاتصالات وتخرج في جامعة الإسكندرية.. أنشأ مع شركاء شركة خاصة اسمها «سيلتل إنترناشيونال».. تغطي الآن أكثر من 15 قطراً أفريقيا.. واشترتها شركة «إم..تي..سي» الكويتية بمبلغ 3.4مليار دولار.. حصل منها مو إبراهيم على الثلث خصص جزءا كبيراً منه لجائزة الحكم الرشيد.. والتي أعلن عنها في أكتوبر 2006 بهدف نشر الديمقراطية والتنمية في أفريقيا.

مانديلا إرهابي :

وفي الوقت الذي كان فيه العالم أجمع يتسابق لتكريم مانديلا بالشكل اللائق برحلة كفاحه.. وينظر إليه باعتباره رمزاً للنضال والكفاح.. نجد اسمه مسبوقاً بصفة الإرهابي في كلٍ من إنجلترا التي كرمته بالصورة المشار إليها سابقاً.. وفي الولايات المتحدة أيضاً.. فرئيسة الوزراء البريطانية السابقة «مارجريت تاتشر» كانت تعتبره شخصاً إرهابياً حتى نهاية فترة حكمها.. وكان هذا من أخطائها العديدة.. وكذلك النظام الأمريكي.. حيث كشفت صحيفة «U.S.A Today توداي - أمريكا اليوم» في أحد أعدادها أن «نيلسون مانديلا» بالرغم من حصوله على جائزة نوبل للسلام يحتاج إلى إذن رسمي لدخول الأراضي الأمريكية لأن اسمه ما زال مدرجًا على لائحة الشخصيات المتهمة بالإرهاب.

وهو اتهام بقدر سذاجته إلا أنه أمر قانوني واقع هناك.. فجره مؤخرًا السيناتور الديمقراطي « هوارد برمان» الذي يرأس لجنة الشؤون الخارجية في الكونجرس عندما تقدم بمشروع قرار لرفع المجلس الوطني الأفريقي من القائمة السوداء التي تدمغ الحركة وزعيمها بالإرهاب..

بينما.. وعلى صعيدٍ آخر لا تتوقف الصحافة.. والإعلام الإسرائيليان عن اتهامه بهذه التهمة الظالمة.. ويحذو حذوهما كل إعلام صهيوني.. تابع للتوجهات الصهيونية.. في العالم أجمع.. خاصةً في دول الغرب.. كل هذا بسبب موقفه المساند.. والداعم للفلسطينيين.. والقضية الفلسطينية .

« مانديلا » الذي حطم قيود العنصرية.. وكسر النظام العنصري الذي كان يستعبد بلاده ويستبد بشعبه في جنوب أفريقيا.. وحرر شعبه من العبودية لنظام عنصري بغيض.. وظالم كانت تدعمه واشنطن.. ثم تولى رئاسة بلاده.. وأرسى نظامًا حرًا.. وديمقراطيًا مثاليًا.. أصبح إرهابيًا في نظر الإدارات الأمريكية.. وإعلامهم المشوه.. في وقت تصف هذه الإدارات هي نفسها مجرمي الحرب في الكيان الصهيوني بأنهم رجال سلام.. وأن ما يقومون به من مذابح وتدمير وتشريد أفعال دفاعية عن نفسه وتخدم السلام أيضاً.

ومؤخراً أعلنت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة « كوندليزا رايس » إنه لابد من إنهاء الحرج الذي تشعر به الإدارة الأمريكية بشأن القيود التي لاتزال مفروضة على سفر الزعيم الأفريقي « نيلسون مانديلا » إلى الولايات المتحدة.. وقالت في كلمةٍ لها أمام الكونجرس:

«من المحرج أن يبقى اسم رئيس جنوب أفريقيا السابق نيلسون مانديلا وحزبه المؤتمر الوطني الإفريقي على اللائحة السوداء للإرهاب في الولايات المتحدة.. وأضافت أن «جنوب أفريقيا بلد نقيم معه اليوم علاقات ممتازة لكن من المحرج أن اُضطرُّ إلى التدخل شخصيًا للسماح بدخول نظيري الجنوب أفريقي ومانديلا إلى الولايات المتحدة».

وكانت رايس تتحدث أمام لجنة من مجلس الشيوخ الذي أعلن عزمه تبني قانون جديد لشطب المؤتمر الوطني الأفريقي من اللائحة السوداء للمنظمات الإرهابية.. ولم يحدد أي موعد لتبني هذا القانون الذي يتوقع أن يصادق عليه الكونجرس بسهولة بدعم من وزارة الخارجية بحسب مجلس الشيوخ.. ووصف السيناتور الجمهوري وقتها « جود كريج » القيود الحالية بأنها «بيروقراطية عقيمة».

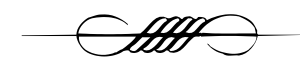
مانديلا.. والمخابرات البريطانية :

ذكرت بعض المصادر البرلمانية في بريطانيا أن اسم نيلسون مانديلا ضمن قوائم المتعاملين مع جهاز المخابرات الخارجية البريطاني (M . I . 16) فقالت : إن نيلسون مانديلا لم يكن ظاهرة فريدة في مجال النضال ضد العنصرية في العالم فحسب.. بل كان من الواجهات التي تعاونت مع الحكومات البريطانية المتعاقبة من أجل تحسين صورة السياسة الدولية من جهة وتبييض صورة وسجل المخابرات البريطانية التي أسهمت في وقت ما ولا تزال في صنع أحداث عالمية مبهرة ورئيسية لم يحن الوقت للكشف عنها.

وقال المصدر: إن بريطانيا لا تزال الدولة الرائدة في مجال صنع الجاسوسية ومحاربتها على السواء وإن ملفاتها حبلى بأكثر مما لدى المخابرات المركزية الأمريكية «C.I.A» من أحداث وقصص ومعلومات على الرغم من الفارق الكبير في الإمكانات بين الجهازين!

ويشير المصدر إلى أن جيلا كبيرًا ومتعددًا من الزعماء والقادة العرب الذين تبنتهم أو بنتهم أو أوصلتهم المخابرات البريطانية إلى السلطة ما زال أمره في طي الكتمان ولكن هناك اتجاهًا واضحًا بالكشف عن هذه الأسماء بشكل رسمي بخاصة بعد مرور سنوات طويلة على عمالتهم وفقًا لقانون بريطانيا الذي يسمح بالكشف عن وثائق سرية بعد مرور خمسين عاماً عليها .

وذكر المصدر أن الخوف الذي تردد عن احتمال تسرب معلومات استراتيجية أمنية من خلال احتمال فك شفرة محتويات حقيبة آلية كمبيوتر محمول فقده عميل مخابرات بريطاني في محطة بادنتون للقطارات في أطراف الحي الغربي في لندن.. غير مبرر ومبالغ فيه إذ أن مثل هذه المعلومات مبرمجة لمحو ذاكرتها أو تجميد اتصالاتها مع الشبكة الأم حال تغير أسلوب فك رموزها أو التوقف عن استخدامها خلال فترة وجيزة فضلا عن قدرة الإدارة المركزية للمعلومات والأرشيف في إدارة الجهاز الذي يقع على ضفاف نهر التايمز في منطقة ويست منستر.. على تعطيل عمل الكمبيوتر المحمول الذي يحمل عادة أرقاما خاصة مصنفة بطريقة معقدة.



من أقوال مانديلا

لم يدر في خلدي قط إنني لن أخرج من السجن يومًا من الأيام.. وكنت أعلم بأنه سيجيء اليوم الذي أسير فيه رجلاً حرًا تحت أشعة الشمس والعشب تحت قدمي.. فإنني أصلاً إنسان متفائل.. وجزء من هذا التفاؤل هو أن يبقي الإنسان جزءاً من رأسه في اتجاه الشمس وأن يحرك قدميه إلى الأمام.

أثناء تواجده في لندن لمناسبة اجتماع وزراء مالية الدول الصناعية السبع الكبرى قال مانديلا :

«الفقر الواسع النطاق وانعدام المساواة بشكل فاحش من أسوأ نكبات هذا الزمن.. حتى إنه ينبغي اعتبارهما من المساوئ الاجتماعية جنبا إلى جنب مع العبودية والفصل العنصري..»

لقد حدث في تلك السنوات الطويلة والانفرادية أن أصبح توقي إلى حرية شعبي توقياً إلى حرية كل الناس.. بيضاً وسوداً.. وعرفت فيما عرفت أنه يجب أن يتحرر الظالمون مثلما يجب أن يتحرر المظلومون بالتأكيد.. فالإنسان الذي يسلب حرية إنسان آخر هو سجين البغضاء.. وهو مُقفَل عليه خلف حواجز التعصّب وضيق الذهن.... والظالم والمظلوم مسلوبان على السواء من إنسانيتهما.

أن يكون المرء حرًا ليس مجرد أن يفلت من أغلاله.. بل أن يعيش بطريقة تحترم حرية الآخرين وتزيد منها.

- إن حياتي هي سلسلة متصلة من الصراع .

- كما توجد أحلام صغيرة وأحلام كبيرة.. يوجد أيضًا أشخاص صغار.. وأشخاص كبار.. أشخاص مثل مانديلا.

- إننا نقتل أنفسنا عندما نضيّق خياراتنا في الحياة .

- التسامح الحق لا يستلزم نسيان الماضي بالكامل.

- العظمة في هذه الحياة ليست في التعثر ولكن في القيام بعد كل مرة نتعثر فيها.

- لا يوجد شيء مثل العودة إلى المكان...الذي يبقى بدون تغيير لتجد فيه ما عدلته بنفسك.

- الإنسان الحر كلما صعد جبلاً عظيماً وجد من ورائه جبالاً أخرى يصعدها..

- الحرية لا يمكن أن تعطى على جرعات.. فالمرء إما أن يكون حراً أو لا يكون حراً.

- الجبناء يموتون مرات عديدة قبل موتهم الأخير.. والشجاع لا يذوق الموت إلا مرة واحدة.

- جسم الإنسان يتكيف مع أي ظروف قاسية.. لكن تبقى المعتقدات الراسخة هي سر البقاء في ظروف الحرمان.

- إني أتجول بين عالمين.. أحدهما ميت والآخر عاجز أن يولد.. وليس هناك مكان حتى الآن أريح عليه رأسي.

- إذا خرجت من السجن في نفس الظروف التي اعتقلت فيها فإنني سأقوم بنفس الممارسات التي سجنت من أجلها.

- كنا نستمع يوميا ونقابل آلافا من الإهانات التي يلقاها الأفارقة فى حياتهم.. ومنها خطط إخلاء المناطق التي يسكنون بها والتي أكدت لي ضرورة المقاومة ولكن الدرس الذي استنتجته أنا.. هو أن خيارنا الوحيد هو الكفاح المسلح..

- أريد أن أخبر العالم كله أننا حين نكون مستعدين للصمود أمام التحديات سنستطيع تحقيق كل الأحلام.. وحتى الخيالية منها ..

وقالوا عن مانديلا

« إنه شخصية كاريزمية حكيمة وكريمة.. عانى كثيراً.. وانتصر على أعدائه ولكنه لم ينتقم منهم.. سياسي محنك ولكنه يتصرف كمواطن عادى بسيط»..

الصحفي البريطاني الشهير (مايكل وايت)

« إن مانديلا أصبح يمثل أكثر من أي شخص آخر يحيا في عالمنا رمزًا لكل ما هو باعث على الأمل ومثالي في الحياة العامة»..

بيل شيبسي مؤسس منظمة (الفن من أجل العفو)

رجل لا ينقصه إلا الإسلام:

عرف عن نيلسون مانديلا شدة تواضعه وحبه للناس حتى إن أبواب القصر الرئاسي (اليونين بلدنق) في جنوب أفريقيا وقت أن كان الرجل رئيساً لها كان مفتوحا للجميع.. عندما يسير في المناسبات تجد الصغار قبل الكبار يحيونه ويلتقطون معه الصور دون أن يتذمر أو يتضايق.. فماذا عن علاقته بالإسلام ؟ ..

تعاطفه مع قضايا المسلمين واضح ومبني على قيم العدل التي يحملها للعالم.. وفي وقتٍ سابق سحب نيلسون مانديلا مساندته الكاملة للرئيس الأمريكي في حربه ضد أفغانستان مضيفا أن آراءه ربما جرحت مشاعر البعض ـ يقصد المسلمين ـ ومنح مانديلا الرئيس الأمريكي «مساندة كاملة» في نوفمبر للأعمال العسكرية التي أقدمت عليها الولايات المتحدة ضد أفغانستان بعد الهجمات على مركز التجارة العالمي و(البنتاجون) وقال مانديلا في بيان «أقنعتنا المناقشات التي أجريناها بعد ذلك مع أفراد عائلتنا وأصدقائنا والناصحين لنا بأن وجهة نظرنا ربما كانت منحازة وتنطوي على مبالغة».. وأضاف أن من تحدث إليهم أوضحوا «أن المساندة الكاملة للحرب في أفغانستان تعطي الانطباع بأننا لا نهتم ولا نشعر بمعاناة الشعب الأفغاني وبلاده».. وأضاف أن وصف أسامة بن لادن الذي يتزعم تنظيم القاعدة بأنه «الإرهابي» المسؤول عن الهجمات على الولايات المتحدة في 11 سبتمبر قبل محاكمته وإدانته من الممكن أيضاً النظر إليه على أنه يقوض بعض الأركان الأساسية لحكم القانون.

وأدان زعماء مسلمون في جنوب أفريقيا مانديلا لمساندته الكاملة للضربات الأمريكية في أفغانستان كما فسر البعض تصريحاته على أنها مناهضة للإسلام.. وقال مانديلا:

«نود أن نسجل بالغ أسفنا إذا كانت الطريقة التي أبدينا بها موقفنا أساءت بأي صورة للمسلمين في جنوب أفريقيا وفي شتى أنحاء العالم».. وقال إنه سيكتب إلى بوش للتخفيف من آرائه التي أعرب عنها من قبل للرئيس الأمريكي شخصيا وبالمراسلة..

ومن خلال تصريحات الرجل دائماً ما يؤكد على أنه يُكن للإسلام والمسلمين معزة خاصة جداً.. والمسلمون في جنوب أفريقيا يتذكرون جيداً ذلك اليوم في جوهانسبرج عندما أصر على أن يشارك المسلمين فرحتهم ويحضر صلاة العيد معهم وسط دهشة الكثيرين في العراء فهو يعتبر الإسلام من أكثر الأديان حملا لقيم العدل والمساواة .. ويذكر أنه تحدث يوماً عن الإسلام وقيمه وأركانه وواجباته فذرفت عيناه من الدموع وقال : إنه دين عظيم .

حلمه الكبير الذي حدث به الخاصة أن يزور مكة المكرمة ويشاهد مراسم الحج العظيمة وتلاحم الناس دون تمييز رغم اختلاف ألوانهم وثقافاتهم ويقف أمام الكعبة المشرفة.

وعندما قام بافتتاح المعرض المصاحب لملتقى خادم الحرمين الشريفين في جوهانسبرج توقف أمام مجسم الحرم المكي وسترة الكعبة طويلا وقال : إنه مشهد عظيم يؤثر في النفس.

ليته كان مسلماً :

وفي رسالة خاصة من الداعية والكاتب الإسلامي عائض القرني إلى الرئيس نيلسون مانديلا يدعوه فيها لدخول الدين الإسلامي.. كتب القرني رسالة رائعة لنيلسون مانديلا يدعوه فيها إلى الإسلام.. ويعدد فيها مناقبه فيقول :

تحية طيبة أيها الرئيس العظيم:

أنا أحد الملايين في مشارق الأرض ومغاربها.. الذين قرؤوا سيرتك.. وعرفوا جهادك.. وأُعجبوا بصمودك.. وتعجَّبوا من تضحيتك واستبسالك في سبيل مبادئك.. ولأجل حريتك وحرية شعبك.. حتى صرت نجماً في أفق الحرية.. وزعيما عالمياً في مدرسة النضال.. ومنظِّرا عبقريا في دستور حقوق الإنسان.

لقد أخذ الناس منك قصة الكفاح.. واستفادوا منك رواية المجد وأنشودة الإصرار والتحدي.. فصرت أنت أبا لكثير من المستضعفين الذين سُلبوا حقوقهم.. واضطُهدوا في ديارهم.. وحرمهم الاستبدادُ من العيش الكريم.. فرأوا فيك مثلاً حياً.. وقدوةً حسنةً في الصبر والإصرار والاستمرار.. ورفض الظلم.. ومواصلة البذل والفداء.. حتى تُنال الحقوق.

أيها الرئيس العظيم :

إن الإسلام – دين الله الحق – دين عظيم.. يحب العظماء.. ويحترم المبدعين.. ويحيي الشرفاء.. وأنت أحدهم.

إنه دينُ المساواة.. ساوى بين عمر العربي.. وبلال الحبشي.. وسلمان الفارسي.. وصهيب الرومي.. إنه دينٌ يرفض الظلم.. ويحرم الاستبداد.. ويُلغي فوارق اللون والجنس واللغة.. يقول الله – عز وجل : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ .

أيها الرئيس العظيم :

إن الإسلام يحتفي بمثلك من العظماء.. لأنه دين يقدِّر الفضيلة.. ويعظِّم الصبر.. ويحثُّ على العدل.. وينشد السلام.. وينشر الرحمة.. ويدعو إلى الإخاء..

أيها الرئيس العظيم :

لقد حصلتَ على المجد الدنيوي.. ونلتَ الشرف العالمي.. وأحرزتَ وسام التضحية.. ولبست تاج الحرية.. فأضفْ إلى ذلك: الظفر بطاعة الله وبالإيمان به.. واتباع رسوله ﷺ .. ولا يكون ذلك إلا بالإسلام.. فأسلمْ تسلم.. أسلمْ تنلْ العزَّ في الدنيا والآخرة.. والفوز في الأولى والثانية.. والنجاة من عذاب الله.. أسلمْ – أيها الرئيس العظيم – لتحييك الأرض والسماء.. ويرحِّبَ بك مليار ومائتا مليون مسلم.. وتفتَّح لك أبواب الجنة.

أيها الرئيس العظيم :

إنك مكسبٌ للإسلام.. ورصيدٌ للمسلمين.. وما أجملها أن تنطلق من فمك كلمة الحق والعدل والسلام والحرية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»! وهي أصدق جملة أنزلها الله على الإنسان.. وهي سرُّ سعادة الإنسان ونجاته وفرحه ونصره.

أيها الرئيس العظيم :

كلما قابلتُ في بلاد الإسلام علماء وزعماء وأدباء وحكماء قالوا: ليت (نيلسون مانديلا مسلم).. فأرجوك وآمل منك أن تعلنها قويةً مدويةً خالدةً» :لا إله إلا الله محمد رسول الله».. حينها سوف يصفِّق لك عبادُ الله في القارات الست.. وتحييك مكة.. وتفتح لك الكعبة أبوابها.. وتشيد منابر المسلمين باسمك الجميل.. أنت صبرت في الزنزانة سبعاً وعشرين سنة حتى كسرت القيد.. وانتصرتَ على الظلم وسحقت الطاغوت.. فسطِّرْ بإسلامك ملحمةً من الإيمان.. وقصةً من الشجاعة.. وصورةً رائعةً من صور البطولة.

أيها الرئيس العظيم :

والله لقد وجدنا في الإسلام – نحن المسلمين – قيمة الإنسان وكرامته.. وذقنا حلاوة الإيمان ولـذة الطاعة.. ومتعة العبودية لله.. وشرف السجود له.. ومجد اتباع رسوله.. ولأنـك عزيـز علينـا.. أثـير في نفوسنا – لتاريخك المشرـق – فنحب أن تشاركنا هـذه الحيـاة السعيدة في ظل الإسـلام.. والفرصـة الغامرةَ في رحاب الدين الخالد.

أيها الرئيس العظيم :

إن الـمُثل العليا التي تدعو لها سوف تجدها مجتمعة في الإسلام.. والرحمة التـي يخفـق قلبـك بهـا سوف تلمسها في الإسلام.. والعدل الذي تدعو إليه سوف تسعد به في الإسلام.

إن الإسـلام يحـب الصـابرين وأنـت صـابر.. ويحـترم الأذكيـاء وأنـت ذكـي.. ويبجِّـل العقـلاء الأسوياء وأنت عاقل سوي.. ويحتفي بالشجعان وأنت شجاع.

أيها الرئيس العظيم :

لقد عشت معك أياما جميلة عبر مذكراتك: (رحلتي الطويلـة مـن أجـل الحريـة).. فوجـدت مـا بهرني من عظمتك وصبرك وبسالتك.. فقلت: ليت هذا الإنسـان الفاضـل الألمعي مسـلم.. ووالله لا أجد دينا يستأهلك وتستأهله غير الإسلام.. ولا أعـرف مبـدأً يكـرم مثلـك إلا الإسـلام.. لأنـه دين الفطرة.. يشرـح الصـدر.. ويخاطـب العقـل.. ويهـذِّب الـنفس.. ويزكـي الأخـلاق.. ويكـرِّم الإنسان.. ويعمر الكون.

أيها الرئيس العظيم :

أنا أخاطبك من مكة.. من جوار الكعبة.. حيث نزل القرآن وبُعث ﷺ.. وأشرقت شمس الرسالة.. وكُسر الصنم.. وحُطِّم الطاغوت.. وأُعلنت حقوق الإنسان.. وأُلغي الاستبداد.. ونُشر العدل والسلام..

يقول ربنا وربك – جل في علاه : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾.

أيها الرئيس العظيم :

إن الحياة قصيرة متعبة فما بالك إذا كانت حياة مثلك من العظماء.. إذ قضيت ما يقارب النصف من عمرك مظلوماً مسجوناً.. وهناك حياة الأبد والخلود في حياة النعيم التي ينالها المؤمنون بالله المتبعون لرسله.. وأرجو ألا تفوتك هذه السعادة والفوز.. وكما يقول الفيلسوف الشهير ديكارت: «إن الحياة مسرحية رأينا المشهد الأول.. مشهد الظالم والمظلوم.. والغالب والمغلوب.. والقوي والضعيف.. فأين المشهد الثاني الذي يكون فيه العدل؟!».. فأجابه علماء المسلمين بقولهم: «المشهد الثاني هو يوم الحساب في الآخرة.. يوم تُنصب محكمة العدل إذ لا حاكم إلا الله.. ليوفي كلَّ نفسٍ بما كسبت.. ويحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون..

وفي الختام أسعد بأن أهديك كتابي: (لا تحزن) لعلك تجد فيه إجماع العلماء والحكماء العباقرة على أن السعادة في الإسلام..

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يشرح صدرك – أيها الرئيس – للإسلام.. وتقبل تحيات المسلمين رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً في كل أصقاع الأرض..

وتقبلوا تحياتي..

د.. عائض عبد الله القرني

ليخ فاونسا :

وفي بولندا خرج ليخ فاونسا زعيم حركة التضامن العمالية التي حققت الحرية لبولندا بانفصالها عن هيمنة الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو .. ففاونسا الرجل الأسطورة.. الكهربائي شبه الأمي العامل البسيط في حوض بناء السفن في مدينة غدانسك.. كان واحدا من آلاف العمال المستخدمين في هذا المصنع وواحدًا من ملايين العمال المضطهدين في المصانع الحكومية باسم الاشتراكية والثورة وما شابه.. واستطاع القيام بحركة التضامن و أصبح رمز الحرية في كل أوروبا والعالم «الحر».. حتي أضحت حياته الشخصية محل اهتمام حكومات العالم من الساحة الحمراء حتى البيت الأبيض مرورا ببرلين وباريس والفاتيكان.. ثم حصل على جائزة نوبل للسلام وأصبح اسمه في فترةالثمانينيات أشهر من نار على علم حتى في بلادنا العربية ودول أمريكا اللاتينية وغيرها.

تشرشل.. وآخرون :

قاد الزعيم الإنجليزي تشرشل حركة المقاومة الإنجليزية ضد ألمانيا بقيادة هتلر.. ولم يطلب تشرشل من شعبه أن يقف معه ويختاره دون بقية المرشحين الآخرين.. أو أنه باختصار صاحب إنجلترا وعموم دولة الإنجليز!!.. وما فعله تشرشل في انجلترا فعله ديجول في فرنسا.. فهو الذي قاد حركة المقاومة الفرنسية ضد الغزاة الألمان.. وحرر باريس وبقية الأراضي الفرنسية وكانت الهند أكبر وأوسع وأفقر المستعمرات في التاريخ.. احتلها الإنجليز لسنين طويلة ليزيد شعبها فقرا على فقره.. وقيض الله لها زعيما اسمه «جواهر لال نهرو» والد أنديرا الذي قاد الهنود في حركة شعبية في طريق التحرير والاستقلال.. الذي تحقق لهم على يد زعيمهم غاندي وتلميذه نهرو في السنغال الرئيس ليوبولد سنجور الملقب بحكيم أفريقيا والحائز على جائزة نوبل.. وهو أديب عالمي وشاعر مشهور.. وصاحب جائزة نوبل وحكيم أفريقيا بلا منازع.. وهو واحد من أبطال حركة التحرر الوطني في العالم.. فهو محرر الشعب السنغالي من الاستعمار الفرنسي. ولم يكن ليوبولد سنجور هو الوحيد في قارة أفريقيا الذي فعل ذلك.. بل كان هناك الكثيرون ممن دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه بتحرير شعوبه .

وإلى هذا الطابور الطويل من أهم قادة.. ورموز.. وأعلام القرن العشرين انضم نيلسون مانديلا.. ليصبح أشهر سجناء التاريخ.. من أجل الحرية وفي سبيلها .. بعد أن أمضى سبعة وعشرين عاماً في السجن في جنوب أفريقيا العنصرية.. وحين خرج من السجن رفض أن يتولى رئاسة الجمهورية إلا عبر انتخابات حرة نزيهة يخوضها مع بقية زملائه من المنادين بالحرية والاستقلال ونبذ العنصرية.. وحين فاز كان أول رئيس أسود لجمهورية جنوب أفريقيا .. لقد أمضي مانديلا سبعة وعشرين عاما في السجن.. ولم يطالب بمثلها في الحكم.. فدخل التاريخ معبودا للجماهير.. ليس في جنوب أفريقيا فقط بل في العالم أجمع.. ولهذا فقد كان جديرا بأن يحظى بلقب أحد زعماء القرن مع رجال آخرين أعطوا لشعوبهم الحرية والاستقلال ولم يطالبوا بثمن لذلك.. ولم يمتنوا أو يعايروا شعوبهم بما حققوه لهم..

وهكذا.. انتهت رحلتنا مع أشهر ثوار.. وسجناء القرن العشرين.. الزعيم الأسطوري « نيلسون مانديلا » الذي حرر شعبه من العنصرية.. ودفع ثمن ذلك سنوات طويلة في السجن.. وخرج لينجح في انتخابات ديمقراطية.. يتولى الحكم.. ويتنحى بلا شروط.. ليقدم أحد أعظم النماذج لمناضل ساهم بعناد في تحرير شعبه.. دون أن يحمله أعباء سجنه أو يظل جالسا على عنقه إلى ما لا نهاية.. ترك الحكم وعاد مواطنًا مميزًا يحيطه الشعب بالإجلال والفخر ويضعه رمزا للحرية والصمود.. في أفريقيا والعالم كله..

الرجل الذي أصبح اسمه ـ وسيبقى ـ رمزاً لكل الشعوب الحرة التي تبغي الديمقراطية وترنو للسلام والاستقلال دون استخدام العنف بل بواسطة الحوار والتصارح والمصالحة والتسامح.. ولا يسعنا في النهاية إلا أن أعيد إلى الأذهان حرص العديد من أصحاب الرأي في أفريقيا أن ينهل الجميع من نبع القيم والتراث المستمر للعملاق نيلسون مانديلا.. ولا يفوتني أن أكرر الدعوة للمؤسسات الفكرية والثقافية في العالم العربي أن تقوم بما يفرضه عليها واجبها في التعامل الواعي مع الماندلية.. خاصة أن الرجل إذا ما تحدث.. صمت الكثيرون واستمعوا!!



تواريخ.. وأرقام

تمثل محطات هامة في حياة « مانديلا »

1- عام 1918 : مولده باسم رولي هلا هلا في منطقة ترانسكي في أفريقيا الجنوبية .

2- 1944 : الانتماء إلى حزب «المجلس الوطني الأفريقي» والمساعدة على إنشاء «اتحاد شبيبة المجلس الوطني الأفريقي» ووضع «خطة التحرك» التي تبناها الحزب عام 1949..

3- 1952 : أنشأ أول مكتب محاماة للسود في جنوب أفريقيا بمشاركة أوليفر تامبو .

4- 1960 : مذبحة شاربفيل.. حظر «المجلس الوطني الأفريقي» واعتقال مانديلا.

5- 1961 : الإفراج عن مانديلا الذي بدأ حركة مقاومة سرية 1962 .

6- 1962 : تم اعتقاله مجددا والحكم عليه بالسجن خمس سنوات.

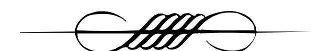
7- 1962 : تم الحكم عليه بالمؤبد بعد محاكمته بتهم أخرى.

8- 1990 : الإفراج عنه

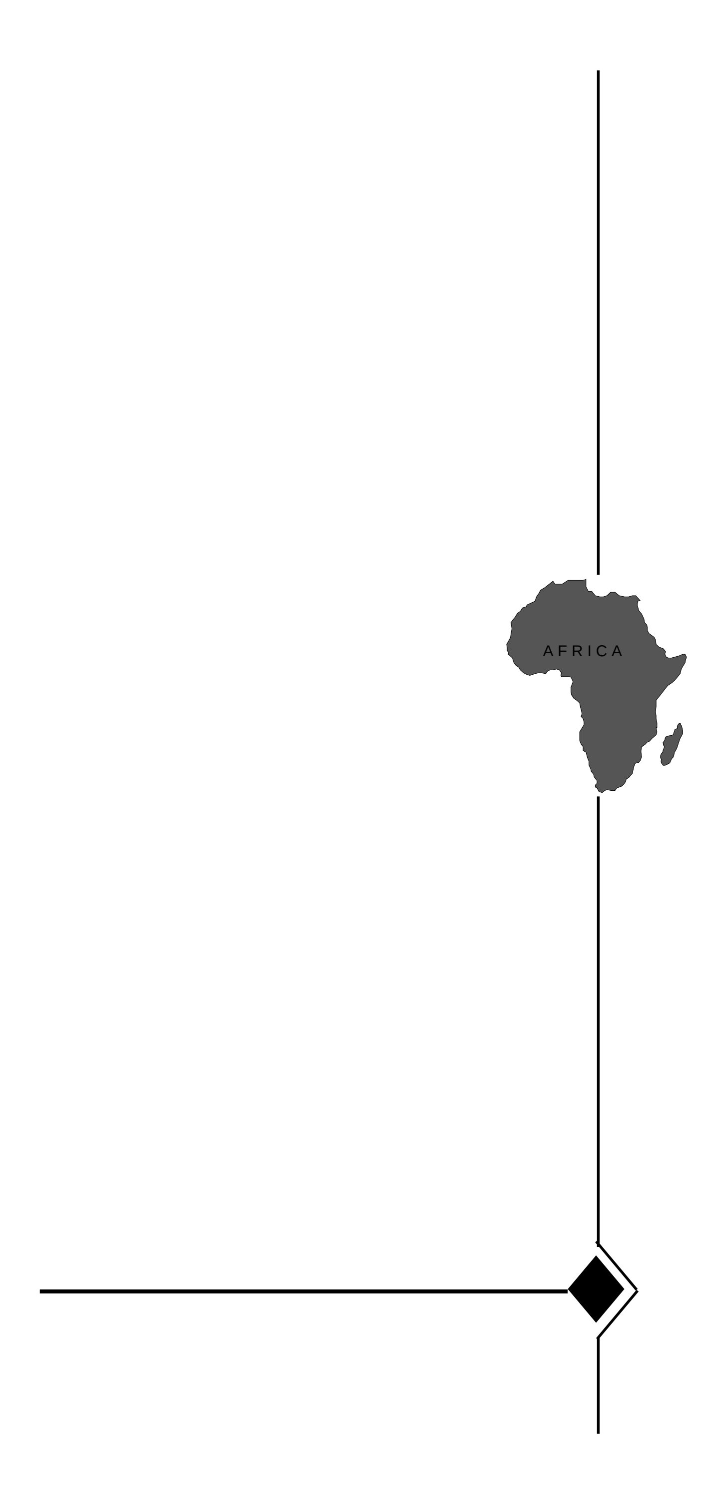
9- 1993 : منحه جائزة نوبل للسلام وعدد من شهادات الشرف من جامعات عالمية..

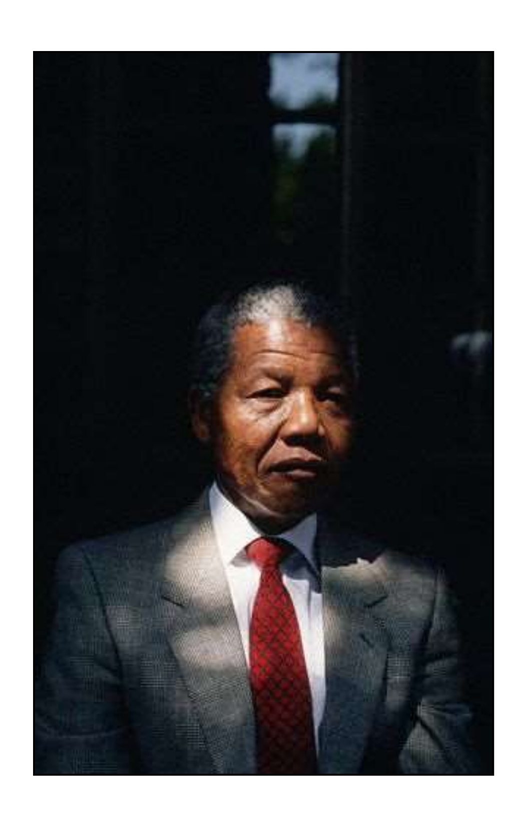
10- 1994 : انتخاب مانديلا رئيسا لجنوب أفريقيا في (10 مايو)..

11- 1999 : إعلانه التخلي عن الحكم ..



ملف صور





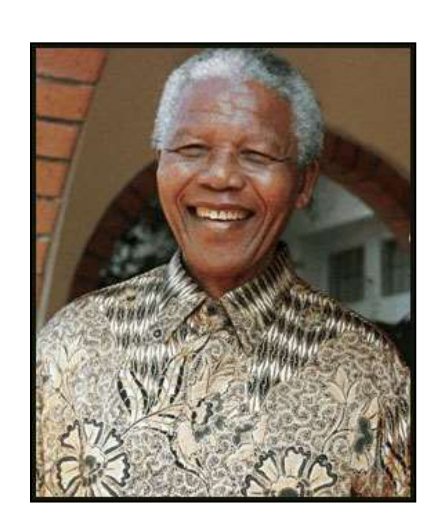



ANC





النصب التذكاري لمانديلا في جوهانسبرج





في احتفالات فوز بلاده بتنظيم كأس العالم



يمسك بكأس العالم



يحتضن ليلى ابنة محمد على كلاي





في أمريكا مع الرئيس الأمريكي بيل كلينتون





زوجته الثانية (ديني)



مع ياسر عرفات





مع أحد الأمراء العرب

أهم المراجع

1 – الأقليات المسلمة في أفريقيا – سيد عبد المجيد بكر

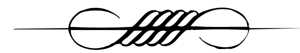
2 – قصة حياة نيلسون مانديلا تأليف: بيل كيلر .. ترجمة: عمار كاظم محمد .

3 – مانديلا « السيرة الموثقة » .. المؤلف: « أنتوني سمبسون»ترجم: هالة النابلسي .. غادة الشهابي .. طبعة 2001 .. الناشر: مكتبة العبيكان..

4 – كتاب «مسيرة طويلة نحو الحرية » – أو «الطريق الطويل إلى الحرية» Long Walk To Freedom .. الكتاب في طبعته العربية صدر عن دار الهلال .. مصر.. عام ١٩٩٥ .. وهو بمثابة سيرة ذاتية كتبها « مانديلا » عن حياته .. ترجمة د ..فاطمة نصر.. وصدرت أول طبعة للكتاب باللغة الإنجليزية عام 1994 عن دار براون للنشر.. وترجم إلى ثلاث وعشرين لغة في مختلف أنحاء العالم .. وهو بمثابة وثيقة هامة في سجل الأحداث التاريخية الخالدة التي عاشها العالم خلال هذه الفترة فيما يتعلق بالتفرقة العنصرية.

5 – مركز معلومات .. وأرشيف الأهرام ـ أخبار اليوم .. روز اليوسف ..

6 – مواقع .. ومنتديات مختلفة من شبكة المعلومات الدولية..



الفهرس